الإمام الدكتور عبد الحليم محمود

العارف بالله

سهل بن عبد الله التستري

حياته وآراؤه



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

جل جلاله

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾

(سورة يونس ٦٢ - ٦٤)

وقال جل شأنه :

﴿ربَّنا آتنا من لَدُنك رحمةً وهيِّئْ لنا منْ أمرنا رشدًا﴾

(صدق الله العظيم)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين :

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[1] .

سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

سبحانك لا مهدى إلا من هديته ، وأنت تباركت ربنا وتعاليت القائل فى الحديث القدسى :

« يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم » .

لقد خلقت الخلق ويسرتهم للضرب فى الحياة ، وذللت الكون لهم ، ليمشوا فى مناكبه سعيًا وراء قوتهم المادى ، وتركت لهم اختيار الوسيلة الحلال لذلك .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

أما الهداية الروحية للفرد وللأسرة وللمجتمع ، فقد أرسلت لهم رسلاً مبشرين ومنذرين يهدونهم فى العقيدة ، وفى الأخلاق ، وفى التشريع ، وفى نظام المجتمع إلى طريق الحق والرشاد : الطريق المعصوم الذى رسمه الحكيم الخبير .

وتوالت الرسل يخلف بعضها بعضًا ، وذلك أن البشر كانت تتغلب عليهم أهواؤهم ونزعاتهم ، فيحيدون عن الرسالة إلى غرائز غلابة ، وأهواء ضالة ..

إلى أن أذنت سبحانك بإرسال ما كان ينقص العالم : الإنسان الكامل .

الإنسان الكامل فى روحانيته ، الإنسان الكامل فى خلقه ، وكان بذلك إنسانًا كاملاً فى مادته التى استجابت إلى الروحانية والأخلاق فكان الإنسان الكامل روحًا ومادة ، وأرسلت معه الكتاب الذى انتهت إليه الكمالات :

أنزلته سبحانك فى ليلة مباركة مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ، يهدى للتى هى أقوم ، عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مبارك : ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب .

أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير : أحكمت من حكيم ، وفصلت من خبير » .

تنزيل من الرحمن الرحيم ، تنزيل من حكيم حميد ، وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ، هو للذين آمنوا هدى وشفاء مجيد ، فى لوح محفوظ .

ويقول عنه رسول الله ﷺ : فيما رواه الترمذى عن سيدنا على رضى الله عنه :

« ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ قال :

كتاب الله مبارك تعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنًا عجبًا ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

والمسلمون يؤمنون بذلك ، ويؤمنون بقوله تعالى :

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ، ويسلموا تسليمًا﴾ [1] .

ويؤمنون بقوله تعالى :

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون﴾[2] .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون﴾[3] .

---

(١) النساء : ٦٥ .
(٢) المائدة : ٤٤ .
(٣) المائدة : ٤٥ .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون﴾[1] .

ومع ذلك فإن إيمانهم هنا كان كلامًا ، مجرد كلام ، لم يطبقوه فى حياتهم ، ولم يأخذوا به فى سلوكهم ، مع علمهم أن المسلمين حينما استمسكوا به سادوا ، وحينما طبقوه دانت لهم الدنيا :

تسير سحابة فوق رأس الخليفة فيقول لها :

سيرى أنى شئت ، وأمطرى حيث شئت ، فسيأتينى خراجك .

ولكن الغرب نجح فى أن يجعل بين المسلمين والقرآن حجابًا من الثقافة الغربية : الثقافة الفكرية البشرية ، الثقافة التى تتغير وتتبدل فى كل حين .

الثقافة التى تخطئ نفسها فى كل عام ، والتى تخترع اليوم ما ترفضه فى الغد ، وتعود فى الغد إلى ما رفضه بالأمس ، وتضفى عليه ثوبًا من الجدة المزيفة ليبلى بعد لحظات .

وما من شك فى أن كل من يقرأ تاريخ الثقافة الغربية منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى الآن يجد الأمر كما وصفنا .

ويجد أن هذه الثقافة باعتبار أساسها ، وباعتبار موضوعها تسير بالإنسانية نحو الهاوية .

إن أساس ثقافة الغرب لا يتسم بالأخلاق ، ولا يتسم بطابع الفضيلة ، وإنما يدرس الأخلاق على أنها عادات ، والفضيلة على أنها اصطلاح

---

(١) المائدة : ٤٧ .

اجتماعى ، ومن هنا كانت ثمار ذلك الانحدار الجارف نحو التحلل من كل القيم الأخلاقية ، ومن مكارم الأخلاق .

ومن وراء كل ذلك اليهود ، تشكيكًا فى العقائد ، وتشكيكًا فى القيم الأخلاقية ، وإشادة بالكثير من الرذائل : يتمسحون فى « الحرية » وكأنها المبرر السحرى الذى يشفع لكل انحراف .

واليهود حينما يسيرون بالبشرية نحو الانحدار ، إنما يسيرون حسب منهج مخطط محكم ، وهو النزول بالإنسانية إلى مستوى يجعلها لا قيمة لها ..

وحينئذ يسود اليهود ، ويملكون ويسيطرون .

ولقد استجاب الغرب لليهود وهو الآن فى طريق الانحدار : خمر ، ونساء ، وفضائح ، وقنابل ذرية ، ووابل من الميكروبات والأوبئة : مكدس مخزون للاستعمال حينما تفقد البشرية رشدها ، وتقوم الحروب المدمرة ، والعياذ بالله .

لقد استجاب الغرب لمكر اليهود وخداعهم ، وأخذ فى الانحدار .

ولقد فلسف الغرب الأساس الذى يقوم عليه الانحدار :

وعنون الفكر اليهودى الأسس المزيفة لهذا الانحدار فى كلمات : الحرية ، والعلم للعلم ، الأدب للأدب .

وتحت شعار الحرية يمكنك أن تقول ما شئت ، وأن تفعل ما شئت ، خصوصًا فى العرى والجنس .

وتحت شعار العلم للعلم لا يكون من شأن العلم أن يسير لأهداف من الفضيلة ، وتحت شعار الأدب للأدب ، تكون الإشادة بكل ما يتنافى مع الأخلاق : مباحة ، ما دامت فى ثوب الأدب وتحت شعار الأدب للأدب ، ومن ذلك الأدب المكشوف ، ومسرحيات الترفيه ، على أى وضع ، وفى أية صورة .

لقد استجاب الغرب للخبث اليهودى ، وإذا كان الغرب يستمتع الآن بالقوة والسيطرة فإن ثقافته النظرية الحالية تحمل فى نفسها عوامل الفناء .

* * *

ونحن فى عالمنا الإسلامى مازلنا نقاوم ، وإذا كان الغرب قد فقد الشعور بالضمير الأخلاقى فى عالم الجنس والعرى والمرأة ، فمازال المسلمون يشعرون بأن ذلك رذيلة .

بيد أن مقاومة التيار اليهودى فى عالمنا الإسلامى ليس من السهولة بمكان ، ولا مناص من تكاتف العاملين للخير ، المناهضين للإلحاد ، القائمين فى وجه الرذيلة حتى يتمكنوا من صد التيار – إذا قدر لهم ذلك – الذى يأتى فى صورة الأفلام الخليعة والمسرحيات الماجنة وعن طريق الإذاعة ، وعن طريق التليفزيون ، وعن طريق كتب الجنس ، وعن طريق المجلات التى تصدر خصيصًا للدعوة للرذيلة بأموال اليهود ، وبأقلام اليهود سافرة أو مستخفية .

لابد من أن يكاتف العاملون للخير ، لابد من تكاتفهم حتى ولو لم يكن الأمل كبيرًا فى ثمرة مجهودهم .

فلقد سبقهم في مجال الهداية قوم تحدث عنهم القرآن ، وأبان أنهم لم ييأسوا من هداية الآخرين مع علمهم بأن الله مهلكهم ... وعسى ... وعسى ... أن يتقوا ، يقول سبحانه :

﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا .

قالوا : معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون .

فلما نسوا ما ذكروا به ، أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾[1] .

وفى هذه الآيات الكريمة يبين الله سبحانه أنه لا يأس فى مجال الدعوة . وأنه سبحانه يكافئ الدعاة بمكافأة كريمة هى : النجاة ، إنه سبحانه يكلؤهم بعنايته فينجيهم من العذاب .

* * *

وهذا الكتاب حلقة جديدة تساهم – مع ما سبق أن كتبنا – فى مقاومة تيار التحلل وتيار الرذيلة .

والشخصية التى كتبنا عنها شخصية من الشخصيات الخالدة : إن سهل بن عبد الله التسترى كان وما يزال ولن يزال مصدر إشعاع روحى بما رسم من :

١ – طريق المعراج إلى الله سبحانه .

٢ – وبنضاله لنصرة أهل السنة .

---

(١) الأعراف : ١٦٤ – ١٦٥ .

٣ – وبما كتبه مؤيدًا طريق الأتباع والاقتداء برسول الله ﷺ .

٤ – ولقد اتصل بالقرآن عن قرب وتأمله فى تدبر فألهمه الله هذه الإشارات النفسية التى استفضنا فى ذكرها فى نهاية هذا الكتاب .

ونرجو الله سبحانه أن يهدى لهذا الكتاب وأن يهدى به ، وأن يشرح له صدورًا ويشرح به صدورًا ، إنه سميع قريب مجيب .

المؤلف

البـاب الأول

الفصل الأول : حياته

الفصل الثانى : الزهد والورع

الفصل الثالث : السياحة الدينية

الفصل الرابع : كراماته

الفصل الخامس : سهل ومجالات علم التوحيد

الفصل الأول

حيـــاته

إن لله فى كل عصر عبادًا قد تحققوا بالعبودية ، واستجابوا لله ، سبحانه ، فى قوله تعالى :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[1] .

وها هو الشيخ الجليل : محمد بن سوار ، قائم فى جنح من الليل ، يتبتل إلى الله ، ويتضرع إليه ، ويناجيه سبحانه .

وها هو ذا قائم يصلى فى خشوع ، ويدعو فى خضوع العبد الملتجئ إلى مالك الملك ذى الجلال والإكرام .

إنه يشعر بسعادة لاحدَّ لها فى خلوته هذه ، مناجيًا ومتفكرًا ومتأملاً :

لقد رضى عن الله ، فرضى الله عنه ، فشعر بسحائب الرحمة تفيض عليه من الملأ الأعلى ، من خزائن رحمة الله التى لا تنفد ، ويستغرق الشيخ وتغمره البهجة ... ويرى هذا المنظر ، سهل بن على التسترى ، وهو غلام صغير فيروقه ويعجبه ، ويملأ قلبه سكينة وهدوءًا وطمأنينة ، فيلازم خاله .

يقول سهل ، فيما يرويه القشيرى : « كنت ابن ثلاث سنين ، وكنت أقوم الليل أنظر إلى صلاة خالى : محمد بن سوار ، وكان يقوم الليل » .

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

ويشفق الشيخ على الغلام أن يصيبه برد ، أو أن يكون عدم النوم سببًا في ضعفه ، ويشغل ذلك قلبه : رحمة بالغلام وشفقة عليه ، فيناديه أحيانًا : يا سهل : « اذهب فنم فقد شغلت قلبى » ...

ويحاول الغلام الاستمرار إرضاءً لرغبته ، ويحاول الذهاب إلى النوم إرضاءً لخاله ... ، . ويتأرجح بين هذا وذاك ، وتتغلب الرغبة أحيانًا ، وأحيانًا تتغلب إطاعة خاله ، ولكن الأيام تمر ، والغلام يحضر خلوة خاله ، ويألف خاله وجوده بجواره ، ويألف الغلام ملازمة خاله فى تهجده وعبادته ، ويتولد بينهما ود من نوع آخر غير ود القرابة والدم ، يتولد بينهما ود روحى عميق – على الرغم من فارق السن – وما كانت الصلة الروحية فى يوم من الأيام تتوقف على التعادل أو التقارب فى السن .

وبدأ هذا الود الروحى يتبلور فى يوم من الأيام حينما قال الخال : يا سهل ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ !

وأحس الغلام فجأة بالغبطة تملأ جوانحه ، وبالسعادة تشق طريقها إلى قلبه : ها هو ذا خاله ينظر إليه نظرة تقدير ، إنه أصبح فى نظر خاله أهل لأن يُوجَّه ، وأن يوضع على الطريق الذى يسير فيه خاله : هل يتأتى فى يوم من الأيام أن يسير فى الحياة على غرار خاله ، وأن يناجى هنا الإله الذى يناجيه خاله ، وأن يتكشف له السر الغامض الذى يجذب خاله فى سجدة الليل ، وينتشله من لذيذ الرقاد ، ليقف عابدًا متبتلاً ؟!

وتملأ الآمال الغامضة ، والسعادة الطارقة قلب الغلام ، وتأخذه الحيرة واللهفة على ألا تمر الفرصة ، فيسأل فى غير تردد ولا فتور سؤال مستجيب راض مغتبط : كيف أذكره ؟

ويجيب الخال : قل بقلبك ، عند تقلبك فى ثيابك ، ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : « الله معى ، الله ناظر إلى ، الله شاهدى » .

ويقول سهل هذا الورد ثلاث ليال بالدقة التى أرادها خاله ، ويتحدث عن نفسه فيقول : « ثم أَعْلَمْتُهُ » . فقال لى :

قل فى كل ليلة سبع مرات .

فقلت ذلك ، ثم أعلمته ، فقال لى :

قل فى كل ليلة إحدى عشرة مرة .

فقلت ذلك ، فوقع فى قلبى حلاوة .

فلما كان بعد سنة ، قال لى خالى :

احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر : فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة فى سرى ... . ثم قال لى خالى يومًا :

يا سهل ، من كان الله معه ، وهو ناظر إليه ، وشاهده ، أيعصيه ؟ إياك والمعصية .

فكنت أخلو ..

لقد كان فى سن مبكرة ، يخلو متعبدًا ، متهجدًا ، ذاكرًا .

لقد ذاق حلاوة الذكر بهذا الورد الخالد الذى عرف فيما بعد بورد سهل ، وذاق حلاوة الأذكار المأثورة ، وذاق حلاوة الخلوة على وجه العموم .

ولكن الزمن يمر ، وها هو ذا الغلام قد بلغ السن الذى يذهب فيه أقرانه إلى الكتّاب .. ولابد – والتقاليد تقضى بذلك – من أن يذهب إلى الكتّاب ليحفظ القرآن وليفقه شيئًا من معانيه .

ولكن سهلاً ، لا يأخذ الأمر بالسهولة ، التى يأخذه بها الغلمان ، ولا بالغبطة التى تكون شعورهم فيما يستقبلونه من حياة جديدة : إنه يتردد ، ويتباطأ ، ويخشى .

يخشى ماذا ؟ وماذا فى الذهاب إلى الكتّاب من ضير ؟

إنه يصارح أهله ، ويعلن خشيته سافرة لا لبس فيها ، ويشترط شروطًا إذا تحتم أمر الذهاب إلى الكتّاب فيقول :

إنى لأخشى أن يتفرق على همى ، ولكن شارطوا المعلم أنى أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع .

لقد ألف الخلوة ، فيها يتجمع الذهن ، وفيها يتركز الفكر فى المذكور ، وفيها يجد للذكر لذة ، ويجد للصدر انشراحًا .. فإن كان لابد من الكتاب فليكن على نسق يجمع الخير من أطرافه ، ليكن للكتاب ساعة وللخلوة الباقى .

ودخل فى الخلوة عنصر جديد : هو الذكر بالقرآن ، ويجد سهل فى القرآن النور ، ويجد فى القرآن الهداية ، فيجد فى حفظه .

وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين .

ولم يترك فى هذه الأثناء ورده الخالد : الله معى ، الله ناظر إلى ، الله شاهدى كما لم يتركه طيل حياته .

لقد كان هذا الورد شعاره حتى ليقول ابن أبى ساعدة .

كان الجالس إلى سهل يكاد يسمع دقات قلبه كلمات ورده .

وعن هذا الورد ، يقول صاحب الكواكب الدرية :

وهو ورد عظيم الشأن ، جربه أهل العرفان ، لكان الترياق الفاجع دائمًا ويقول الشيخ الأكبر ابن عربى فى فتوحاته عن هذا الورد :

دخلت الخلوة بورد سهل ، ففتح لى به فى ليلة واحدة وفيه أسرار عجيبة ، وأذواق غريبة :

ومن أكثر من ذكره حببت له الطاعات ، وبغضت إليه المنكرات ومن ذكره كل ليلة سبع مرات ، وهو فى فراشه ، وجد له حلاوة فى سره .

ويذكر المناوى فى الكواكب الدرية عن هذا الورد :

« قال بعضهم ، ومن تعلق به لم يعجزه شيء من الموجودات » :

الفصل الثانى
الزهد والورع

إن رياضة سهل للآن : ذكر وقرآن ، فضلاً عن العبادة المفروضة والسنن المطلوبة – بيد أن عنصرًا جديدًا دخلها ، لم يكن جديدًا فى نوعه ، وإنما كان جديدًا فى استمراره ودوامه : ذلك هو الصيام ، لقد أخذ سهل فى الصيام ، لقد أخذ فى صيام الدهر ، وهو لم يبلغ بعد العاشرة .

أما قوته فى هذه الفترة ، وأما إفطاره ، فإنه خبز وشعير ، ولقد تكيف جسمه بالجوع حتى ليروى أنه كان يصح إذا جاع ، ويمرض إذا شبع ، وإن من كان قوته الذكر ، وغذاؤه النور ، فإن القليل من القوت المادى يكفى : لقد كان يعيش فى الأغلب الأعم من حياته على الماء وخبز الشعير .

واستمر سهل فى حياته رتيبة : ذكر ، وعبادة ، وصوم إلى أن بلغ الثالثة عشرة من عمره .

وفى هذه السن كان الأمر الهائل فى حياة سهل ، لقد حدثت له مسألة أذهلته : مسألة لم يدْرِ لها تعليلاً ، ولم يفهم لها تفسيرًا ، لقد حيرته ، فسأل أهله أن يبعثوه إلى البصرة ، عله يجد عند أحد من عارفيها تفسيرًا أو شرحًا وتوضيحًا : يقول سهل :

« فجئت البصرة ، وسألت علماءها ، فلم يشف أحد منهم عنى شيئا » وتتملك الحيرة سهلاً ، فيغادر البصرة إلى عبادان .

يقول سهل :

« فخرجت إلى عبادان ، إلى رجل يعرف بأبى حبيب حمزة بن عبد الله العبادانى : فسألته عنها ، فأجابنى .

وأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه ، وأتأدب بآدابه .

هذه المسألة يتحدث عنها الشيخ الأكبر : فيقول :

كان بدء سهل فى هذا الطريق « سجود القلب » .

وكم من ولى كبير الشأن ، طويل العمر ، مات ، وما حصل له سجود القلب ، ولا علم أن للقلب سجودًا مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه فيها ، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع رأسه أبدًا من سجدته فهو ثابت على تلك القدم الواحدة التى تتفرع منها أقدام كثيرة .

وأكثر الأولياء يرون تقلب القلب من حال إلى حال ، ولهذا سمى : قلبًا وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله ، فمن عين واحدة هو عليها ثابت يعبر عنها بسجود القلب .

ولهذا لما رأى فى ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجد ، وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقى حائرًا ، فمازال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته ، فما وجد أحدًا يعرفها ، فإنهم أهل صدق ، ولا ينطقون إلا عند ذوق محقق .

قيل له : إن فى « عِبَادَان » شيخًا معتبرًا لو رحلت إليه ؟ ففعل ، فقال له أيها الشيخ أيسجد القلب ؟ فقال : إلى الأبد .

فوجد شفاء عنده ، فلزم خدمته ، فالله تعالى ، يؤتى ماشاء من علمه من يشاء من عباده » :

﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾[1] .

ويحدد الشيخ الأكبر مقام سهل رضى الله عنه بأنه السجود ، فيقول :

مقام سهل سجود القلب ليس له
في غير سهل من الأكوان أحكام

لا يرفع القلب رأسا بعد سجدته
والوجـه يرفـع والتغيير إعـلام

فـإنه غير مشـهود بقبلتـه
وقبله القلب أسمـاء وأعـلام

تبـدى حقيقتـه تأييد سـجدته
ومـاله في علوم الخلق أقـدام

وهذه الحالة تسمى ، فيما يروى الشيخ الأكبر ، منزلة التمكين ، وتسمى : منزل العصمة .

---

(١) غافر : ١٥ .

الفصل الثالث

السياحة الدينية

وعاد سهل إلى تستر : عاد ليستمر فى الاتجاه الكامل إلى الله ، وعاد ليتابع طريقه فى العبادة والذكر والصيام .

لقد عاد مطمئنا : أن قلبه ساجد ، وكيانه كله خاضع ، لقد أصبح سجودًا وخشية وتواضعًا لله ، سبحانه .

ووجد للصيام نورًا فواصل وطوى اليومين والثلاثة وطوى أكثر من ذلك ، وفى كل يوم كان يزداد نورًا على نور ... .

واستمر على ذلك عشرين سنة ... . ثم ... .

يقول سهل : ثم خرجت أسيح فى الأرض سنين .

وكانت السياحة فى ذلك الزمن من الأمور الجوهرية بالنسبة لرجال العلم وبالنسبة لرجال الطريق ، وسواء كنا بصدد هؤلاء أو أولئك فإن السياحة بالنسبة لهم إنما هى سياحة دينية يريدون بها وجه الله . ويبتغون بها مرضاته :

أما ضرورة السياحة بالنسبة لرجال العلم ، فذلك أن الأقطار الإسلامية توزعت الاختصاصات المتخصصة ، فأكبر علماء الفقه مثلاً فى مصر ، وأكبر علماء التوحيد مثلا فى الحرم المكى ... . وهكذا .

وكان العالم يسافر ليتلقى العلم على المتخصص ، ثم يسافر ليتلقى على متخصص آخر فى علم آخر وهكذا ... بل كان العالم يسافر ليصحح حديثًا واحدًا ، أو بضعة أحاديث .

وما كان الهدف فى كل ذلك إلا ضبط العلم وتحرى الصحة فى الآثار وكانوا يضعون ذلك فى قائمة ما يتقرب به العالم إلى الله ، سبحانه وتعالى ، هذا نوع .

أما النوع الثانى من السياحة : فإنه كان سياحة تبتل وتحنث : إن الشخص فى أهله وذويه مشغول بهم ، مشغولون به ، إن أفكاره موزعة ، وإن آراءه مشتتة : متى يخلو إلى الله ؟ ومتى يكون فى جو من الانطلاق نحو الملأ الأعلى لا يحول دون ذلك مال ولا ولد ؟ متى يأتى له طلب الحق ، خالى الفكر ، صافى الذهن ؟

إن كل ذلك يتاح له بالسياحة ، والسياحة المتجردة .

ولقد كان الصوفية يسيحون عبادة ، ويسيحون استزادة من أنوار قوم فتربوا من ربهم وسبقوا فى السفر إليه ، ويسيحون استرشادًا فى الطريق وطلبًا للبركة ، ويسيحون للتأثير الروحى بالجلوس إلى أرباب المقامات العالية ، والمنازل السامية .

وبعض الناس يسيح طلبًا للملذات ، وبعضهم يسيح طلبًا لمشاهدة أماكن مادية لم يشاهدها من قبل ، وبعض الناس يأخذ أجازة فى الصيف – كل صيف – ليكشف عورته على شاطئ البحر ، ويرضى بأن تكشف ابنته وزوجته عورتهما على الشاطئ أيضًا ، تحت الأنظار – كل الأنظار – التى لا تتورع عن الإثم ولا عن النظر الفاسق .

أما أسلافنا ، رضى الله عنهم ، فقد كانت أسفارهم سياحة فى طلب الحق علمًا ، وسياحة فى طلب الحق عبادة ، إنها كانت سياحة إلى الله .

وقد كانت سياحة سهل رضى الله عنه سياحة علم ، وسياحة عبادة لقد كان عالمًا عابدًا ، فكانت هجرته إلى الله ورسوله .

وبعد هذه السياحة رجع إلى « تستر » .

الفصل الرابع

كراماته

رجع إليها على نور من ربه ، يدعو إلى الله على بصيرة .

ولم يبدأ سهل فى الدعوة إلى الله إلا بعد أن أذن الله له .

روى صاحب كتاب : « صفة الأولياء ومراتب الأصفياء » بإسناده ، قال :

« ذكر سهل التسترى وهو ابن ثلاث سنين .

وصام وهو ابن خمس سنين .

وترك الشهوات وهو ابن سبع سنين .

وساح فى طلب العلم وهو ابن تسع سنين .

وكانت تلقى مشكلات المسائل على العلماء ثم لا يوجد جوابها إلا عنده وهو ابن إحدى عشرة سنة .

وحينئذ ظهرت عليه الكرامات ...

وما من شك فى أننا لا نكاد نعلم شيئاً عن حياة سهل الشخصية ولكننا أخذنا نتلمس فى المصادر من الأخبار القليلة النادرة ما قد يلقى بعض الضوء على حياته ، نذكر من ذلك ما يلى :

يقول سهل : « لى أربعون سنة أكلم الله والناس يظنون أنى أكلمهم » .

ويقول جامع تفسير سهل :

« وصلى « سهل » صلاة العتمة فقرأ قوله تعالى : ﴿وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا﴾ فجعل يحرك فاه كأنه يمص شيئًا ، فلما فرغ من صلاته ، قيل له : أتشرب فى الصلاة ؟

فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كأنى عند شربه ما فعلت ذلك » .

وسئل عن قوله : ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾[1] فقال :

هذه أعظم آية فى كتاب الله تعالى ، وفيها اسم الله الأعظم ، وهو مكتوب بالنور الأخضر فى السماء سطرًا واحدًا من المشرق إلى المغرب كنت رأيته كذلك فى ليلة القدر مكتوبًا وأنا بعبادان :

« لا إله إلا هو الحى القيوم » انتهى

ومن الطرائف التى تروى عنه أنه :

« كان يداوى الناس ، ولا يداوى نفسه من الأمراض ، فعوتب فيه ، فقال : « ضربة الحبيب لا تؤلم » .

ويقول المؤرخون عن سهل :

كان يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم فى كل جمعة مرة كيلا يضعفوا عن العبادة ، وكان إذا أكل ضعف ، وإذا جاع قوى ، وكان يعرق فى البرد الشديد فى الشتاء وعليه قميص واحد ومما يروى عنه من الغرائب ، أو الطرائف :

---

(١) آل عمران : ٢ .

قال سهل : « وإنى لأعرف رجلاً من أولياء الله تعالى اجتاز برجل مصلوب وجهه إلى غير القبلة ، فقال :

أين ذلك اللسان الذى كنت تقول به صادقًا : « لا إله إلا الله » ؟ ثم قال : اللهم هب لى ذنبه .

قال سهل : فاستدار له نحو القبلة بقدرة الله انتهى .

وقال : اجتمعت برجل من أصحاب المسيح عليه الصلاة والسلام ، فرأيت عليه جبة صوف فيها طوارة ؛ وقال لهذه من أيام المسيح عليه السلام سبعمائة سنة ، فعجبت .

فقال : الأبدال لا تخلق ثيابهم ، وإنما يخلقها رائحة الذنوب ومطاعم السحت ، ولذلك قيل : إن للخضر عليه السلام إزارًا ورداء لا يبليان ولا يخلقان » .

وبلغ من أمره فى تقدير الناس أن قيل له :

لقد آتاك الله الحكمة ؟ فقال :

قد أوتيت إن شاء الله الحكمة وغيبا علمت من غيب سره ، فأغنانى عن علم ما سواه ، وأن إلى ربك المنتهى ، وبإتمام ما بدأنى به من فضله وإحسانه » .

وألف سهل كتبًا ، يقول صاحب الكواكب :

« وله تصانيف نفيسة منها : رقائق المحبين ومواعظ العارفين ، وجوابات أهل اليقين ، وغير ذلك .

وفى آخر أيام سهل ، يروى المؤرخون ما يلى :

« كان يسمع القرآن وغيره ، فلا يتحرك ، فلما كان أواخر عمره صار يتواجد ويقول :

ضعفنا والله عن التحمل ، وصار واردنا أقوى منا » .

وقال ابن سالم :

خدمت سهل بن عبد الله ستين سنة فما تغير فى شىء من الذكر أو غيره ، فلما كان آخر يوم من عمره قرأ رجل بين يديه هذه الآية :

﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾[1] فرأيته ارتعد واضطرب حتى كاد يسقط ، فلما رجع إلى حال صحوه سألته عن ذلك وقلت :

لم يكن عهدى بك هذا ؟ فقال :

نعم يا حبيبى قد ضعفت ، فقلت :

ما الذى يوجب قوة الحال ؟ فقال :

لا يرد عليه وارد إلا وهو يبتلعه بقوته ، فمن كان كذلك لا تغيره الواردات ، وإن كانت قوية .

وكان يقول : « حالى فى الصلاة وقبل الدخول فيها سواء ، وذلك أنه كان يراعى قلبه ، ويراقب الله تعالى بسره قبل دخوله فيقوم إلى الصلاة بحضور قلبه ، وجمع همته » .

ولقد دخل سهل على رجل من عباد البصرة ، فرأى عنده بلبلة فى قفص ، فقال : لمن هذه البلبلة ؟

---

(١) الحديد : ١٥ .

فقال : لهذا الصبى ، كان ابنًا له .

قال : فأخرج سهل من كمه دينارًا ، فقال :

بُنىّ أيهما أحب إليك : الدينار أم البلبلة ؟

فقال : الدينار ؛ فدفع إليه الدينار وأطلق البلبلة .

قال : « فقعد البلبل على حائط الدار حتى خرج سهل فجعل يرفرف فوق رأسه حتى دخل سهل داره ، وكان فى داره سدرة ، فسكنت البلبلة السدرة فلم تزل فيها حتى مات ، فلما رفعوا جنازته جعلت ترفرف فوق جنازته والناس يبكون حتى جاءوا بها إلى قبره ، فوقفت فى ناحية حتى دفن وتفرق الناس عن قبره ، فلم تزل تضطرب على قبره حتى ماتت فدفنت بجنبه » .

وفى ليلة الجمعة من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، أذن مؤذن الفجر بالصلاة ، فلم يتحرك سهل ؟

فصاح أهل بيته : مات سهل ، فما كان لمؤذن أن يرتفع صوته بنداء التكبير دون أن يقول سهل :

« لبيك اللهم لبيك » .

وروى أبو الحصين الحمصى فى كتابه – بهجة الأسرار – أنه لما مات سهل ، انكب الناس على جنازته حتى ماجت الطرقات بالناس ؛ وكان فى البلد يهودى نيف على السبعين ، فسمع الضجة فخرج لينظر ما كان ، فلما نظر إلى الجنازة ، صاح : أترون ما أرى ؟ فقال له الناس :

ماذا ترى ؟ قال :

أرى أقوامًا ينزلون من السماء يتمسحون بالجنازة ؛

« ثم تشهد وأسلم » .

أما المبدأ الذى عاش ومات وهو شعاره الذى ينشره بين الناس ، والذى نختم به حياته ، فقد عبر عنه بقوله :

« الأصل الذى أنا أدعو إليه قولى : اتقوا يوما لا ليلة بعده ، وموتًا لا حياة بعده والسلام » .

تقدير العلماء لسهل :

والآن نذكر تقدير بعض العلماء له :

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه :

أحد أئمة القوم ، لم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات مع الله وفى الورع ، وكان صاحب كرامات .

ويقول صاحب كتاب الكواكب الدرية :

الشيخ الأمين ، الناصح المكين ، الناطق بالعقل الرصين ، من أعظم المشايخ المشهورين ، ولم يبرز للناس حتى وقع الإذن له من الله ، وأطلعه على مريديه وأسمائهم وأنسابهم ومن يفتح عليه منهم ومن يموت قبل الفتح .

حبر تجمل الإسلام بوجوده ، وزين طريق الصوفية بقلائد فوائده وعقوده ، وكان أوحد زمانه فى علوم الرياضيات .

ومن قبل هؤلاء كتب أبو نُعيم الأصفهانى المحدث المشهور يقول :

فمنهم الشيخ المكين ، الناصح الأمين ، الناطق الرصين أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التسترى .

تخرج عن خاله محمد بن سوار ، ولقى أبا الفضل ذا النون المصرى بالحرم .

عامة كلامه فى تصفية الأعمال ، وتنقية الأحوال عن المعايب والإعلال .

ويقول أبو عبد الرحمن السلمى :

ومنهم سهل بن عبد الله التُّستَرى ، وهو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع ، وكنيته أبو محمد .

أحد أئمة القوم وعلمائهم ، والمتكلمين فى علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال .

ويقول العالم الجليل الذى جمع تفسيره ما يلى :

وكان من طريقه وسيرته أنه كان كثير الشكر والذكر ، دائم الصمت والفكر ، قليل الخلاف ، سخى النفس ، قد ساد الناس بحسن الخلق والرحمة والشفقة عليهم ، والنصيحة لهم ، متمسكًا بالأصل ، عاملاً بالفرع ، قد حشى الله قلبه نورًا ، وأنطق الله لسانه بالحكمة ، وكان من خير الأبدال ، وإن قلنا من الأوتاد ، فقد كان القطب الذى يدور عليه الرحى ، ولولا أن الصحابة لا يقاس بهم أحد لصحبتهم ورؤيتهم لكان كأحدهم ، عاش حميدًا ، ومات غريبًا بالبصرة ، رحمه الله تعالى ..

ويقول المستشرق الذى كتب مادة « سهل التسترى » فى دائرة المعارف الإسلامية :

« متكلم وصوفى من أهل السنة ... كان زاهدًا لا يحيد قيد أنملة عن « قواعد الحق ، كما كان متكلمًا تزود من العلوم العقلية بزاد وافر » ...

ويقول صاحب كتاب « عقد الجمان » .

الصالح المشهور ، ولم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات والورع ، وكان صاحب كرامات ، ولقى ذا النون المصرى وله اجتهاد وافر ورياضة عظيمة .

ويقول صاحب « شذرات الذهب » :

القدوة العارف ... له مواعظ وأحوال وكرامات ، وكان من أكبر مشايخ القوم .

وهكذا بلغ سهل بعلمه وصلاحه هذه المنزلة الرفيعة عند العلماء والصالحين .

والآن نأخذ فى رسم الطريق كما رسمه سهل رضى الله عنه .

الفصل الخامس

سهل ومجالات علم التوحيد

يقول الله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ [2] .

ويقول الإمام ابن عبد البر متناسقًا مع القرآن الكريم :

إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بمثال ، أو بإمعان نظر ؟

ولقد تورع الكثير من سادتنا العلماء عن الحديث فى ذات الله سبحانه إلا بما ورد فى النصوص ، ويقولون فى كل ما يتصل بالذات من النصوص :

« آمنا به على مراد الله» .

أما التحديد والتفسير والتأويل بالرأى والعقل والفكر البشرى فإنهم بعيدون عن ذلك ، وشعارهم فى ذلك قوله تعالى :

﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[3] .

ولقد اتجه علماء الإسلام الأول إلى احياء الإيمان فى النفوس ، وزيادته فى القلوب عن طريق السير على أسلوب القرآن فى العظة والعبرة .

---

(١) الشورى : ١١ .
(٢) الصافات : ١٨٠ .
(٣) الصافات : ١٨٠ .

ولكن فريقًا من الناس اتجهوا إلى البحث فى المتشابه ، والمتشابه هو كل ما يتصل بالذات الإلهية التى لا تدرك بمثال ولا بإمعان نظر .

ولقد حاول سهل رضى الله عنه أن يعود بالأمر إلى الوضع الصحيح فى هذا الموضوع ، وتحدث عن العلم فى جو التناسق مع القرآن .

يقول سهل بمناسبة قوله تعالى : ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾[1] .

يعنى أقررنا مخافة السبى والقتل ، لأن الإيمان : « اقرار باللسان صدقًا ، وإيقان فى القلب عقدًا ، وتحقيقها بالجوارح إخلاصًا ، وليس فى الإيمان أنساب ، وإنما الأنساب فى الإسلام ، والمسلم محبوب إلى الخلق ، والمؤمن غنى عن الخلق » .

ويتحدث سهل عن مثل المؤمن فى الدنيا فيقول :

« ما ينبغى للمؤمن من أن يكون فى الدنيا إلا كمثل رجل ركب خشبة فى البحر ، وهو يقول :

يارب ، يارب ، لعل أن ينجيه منها ، وما من عبد مؤمن زهد فى الدنيا إلا وكل الله به ملكًا حكيمًا يغرس فى قلبه أنواع الحكم كما يغرس أهل الدنيا فى بساتينهم من طرف الأشجار » .

ولقد سئل سهل عن القاطع للمؤمن عن الله فقال :

« العبد لله والله لعبده ، وليس شىء أقرب إليه من قلب المؤمن ، فإذا حضر الغير فيه فهو الحجاب ، ومن نظر إلى الله بقلبه بعد عن

---

(١) سورة الحجرات من الآية : ١٤ .

كل شيء دونه ، ومن طلب مرضاته أرضاه بحلمه ، ومن أسلم إلى الله تعالى قلبه سلمت جوارحه فاستقامت ، وإنما شهدت قلوبهم على قدر ما حفظوا من الجوارح ، ثم قال :

الزموا قلوبكم نحن مخلوقون وخالقنا معنا ، ولا تملوا من أعمالكم فإن الله شاهدكم حيثما كنتم ، وأنزلوا به حاجاتكم ، وموتوا على بابه ، قولوا :

نحن جهال ، وعالمنا معنا ، ونحن ضعفاء ومقوينا معنا ، ونحن عاجزون وقادرنا معنا ، فإن من لزمها كان الهواء والفضاء والأرض والسماء عنده سواء » .

ولقد تحدث سهل كثيرًا عن أخلاق المؤمنين ، ومن ذلك ما يلي :

قوله تعالى : ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله﴾[1] قال :

كل من صح إيمانه فإنه لا يأنس بمبتدع ويجابهه ، ولا يؤاكله ، ولا يشاربه ، ولا يصاحبه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعًا سلبه الله حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عزه فى الدنيا وعرضًا منها أذله الله بذلك العز ، وأفقره الله بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب » .

---

(١) المجادلة : ٢٢ .

ويقول : « ليس من أخلاق المؤمن التذلل عند الفاقَة ، وقبيح بالفقراء يلبسون الخلقان ، وهموم الأرزاق فى قلوبهم ، وإنما أصل هذه الأمور ثلاث :

السكون إلى الله جل وعز ، والهرب من الخلق ، وقلة الأذى .

ولقد كان عامر بن قيس يقول إذا أصبح :

اللهم إن الناس قد انتشروا لحوائجهم ، وإن حاجتى أن تغفر لى » .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم﴾[1] قال : المؤمن على الحقيقة من لا يغفل عن نفسه وقلبه يفتش أحواله ، ويراقب أوقاته فيرى زيادته من نقصانه فيشكر عند رؤية الزيادة ، ويتفرغ ويدعو عند النقصان .

هؤلاء الذين بهم يدفع الله البلاء عن أهل الأرض ، ولا يكون المؤمن متهاونًا بأدنى التقصير فإن التهاون القليل يستوجب الكثير ، قال :

فإن العبد لا يجد طعم الإيمان حتى يدع ست خصال :

يدع الحرام ، والسحت ، والشبهة ، والجهل ، والمسكر ، والرياء ، ويتمسك بالعلم وتصحيح العمل ، والنصح بالقلب ، والصدق باللسان والصلاح مع الخلق فى معاشرتهم والإخلاص لربه فى معاملته » .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ [2] :

---

(١) الفتح : ٢٥ .
(٢) محمد : ١٤ .

المؤمن على بيان من ربه ، ومن كان على بينة من ربه لزم الاقتداء بالسنن » وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾[1] .

المؤمن وجه بلا قفا ، كرار غير فرار ، تراه يجاهد فى دين الله وطاعته من إقامة توحيده ، واقتدائه بنبيه ، وإدامة التضرع واللجوء إلى الله رجاء الاتصال به من موضع الاقتداء ، كما روى زيد بن أسلم عن النبى ﷺ ، قال :

ما من أمتى إلا يدخل الجنة إلا من أبى ، قلنا يا رسول الله ومن الذى يأبى ذلك ؟

قال : « من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى أن يدخل الجنة » .

وحقيقة التوحيد : هو النظر للحق لاغير ، والإقبال عليه ، والاعتماد ، ولا يتم ذلك إلا بالإعراض عما سواه ، وباظهار الافتقار واللجأ إليه .

ولقد سئل عن ذات الله سبحانه ، فقال :

ذات موصوفة بالعلم .

غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا .

وهى موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول .

---

(١) الحج : ١١ .

وتراه العيون فى العقبى ظاهرًا فى ملكه وقدرته .

وقد حجب سبحانه وتعالى الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والأبصار لا تدركه ، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية » .

وقال : « ليس له وراء ، وليس وراء الله وراء ، هو وراء كل شيء جل الله عز شأنه » .

ولقد سأله رجل عن علم الله تعالى فى عباده : هل هو شيء بداله من بعد ما خلقهم أو كان قبل أن يخلقوا ؟

فقال : « بل هو قرآن مجيد » أى كتاب محكم فى لوح محفوظ قبل أن يخلقوا ، وإن الله عز وجل فرغ من علم عباده وما يعملون قبل أن يخلقهم ، ولم يجبرهم على المعصية ، ولا أكرههم على الطاعة ، ولا أهملهم من تدبيره ، بل نبه على ما توعد به من كذّب بقدره فقال :

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1] .

على وجه التهديد ، إذ لا حول لهم ولا قوة إلا بما سبق علمه فيهم أنه سيكون منه بهم ولهم ، قال الله تعالى :

﴿وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردّ له﴾[2] .

« فالخير من الله تعالى أمر وإليه الولاية فيه ، والشر من الله نهى وإليه العصمة فيه » .

---

(١) الكهف : ٢٩ .
(٢) الرعد : ١١ .

ويحمل سهل على كل من يسير فى تيار المعتزلة فى موضوع أفعال العباد ، ومن ذلك ما يقوله عن المؤمنين :

فأمرهم الله عز وجل أن يؤمنوا بالغيب ، وأن يتبروا عن الحول والقوة فيما أمروا به ونهوا عنه ، اعتقادًا ، وقولاً ، وفعلاً ، ويقولوا :

لا حول لنا عن معصيتك إلا بعصمتك ، ولا قوة لنا على طاعتك إلا بمعونتك ، إشفاقًا منه عليهم ، ونظرًا لهم من أن يدَّعوا الحول والقوة والاستطاعة كما ادعاها من سبقت له الشقاوة ، فلما عاينوا العذاب تبرءوا من ذلك فلم ينفعهم تبرؤهم حين عاينوا العذاب ، وقد أخبر الله عمن هذا وصفهم فى قوله :

﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم – أى دعواهم – لما رأوا بأسنا﴾

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين﴾[1] .

وكما ادعى الحول والقوة والاستطاعة فرعون وقال : متى شئت أنىّ أومن أومن ، فلما آمن لم يقبل منه ، قال الله تعالى :

﴿آلآن وقد عصيت﴾[2] .

أما عن مشكلة خلق القرآن فإن سهلا يخالف المعتزلة ويقول بمناسبة قوله تعالى :

﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربى لنفد البحر﴾ [3] قال :

---

(١) الأعراف : ٥ .
(٢) يونس : ٩١ .
(٣) الكهف : ١٠٩ .

أى بعلم ربى وعجائبه ، ثم قال :

« إن من علمه كتابه ، ولو أن عبدًا أعطى لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية علم الله فيه ، لأنه كلامه القديم ، وكلامه صفته ولا نهاية لصفاته كما لا نهاية له ، وإنما يفهم على قدر ما يفتح الله على قلوب أوليائه من فهم كرمه » .

أما عن فكرته فى أفعال العباد فإنه يقول :

معنى : « رب العالمين » سيد الخلق المربى لهم ، والقائم بأمرهم ، المصلح المدبر لهم قبل كونهم وكون فعلهم ، المتصوف بهم السابق علمه فيهم كيف شاء لما شاء ، وأراد وحكم وقدّر من أمر ونهى ، لا رب لهم غيره » .

أما عن موقف المؤمن من القرآن الكريم ، فإن سهلاً يتحدث عن ذلك فى أكثر من مكان .

قيل له : ما معنى قوله القرآن حبل الله بين الله وبين عباده ؟

قال : أى لا طريق لهم إليه إلا به ، وبفهم ما خاطبهم فيه للمراد منهم به ، والعمل بالعلم لله مخلصين فيه ، والاقتداء بسنة محمد ﷺ المبعوث إليهم ، كما قال :

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[1] .

وقال سهل : إن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه ﷺ ، وجعل قلبه معدنا لتوحيده والقرآن ، فقال :

---

(١) النساء : ٨٠ .

﴿نزل به الروح الأمين ، على قلبك﴾[1] .

وكلفه تبليغه عنه ليعلم المؤمنون به ما أنزل إليهم ، فمن آمن به ولم يعمل بعلم ما فيه لم يكمل أجره » .

وقال سهل :

العجب كل العجب لمن قرأ القرآن ولم يعمل به ، ولم يجتنب ما نهاه الله عنه ، أما استحيا من الله ومحاربته ومخالفته أمره ونهيه بعد علمه به ؟ فأى شيء أعظم من هذه المحاربة ؟ ألم يسمع وعده ووعيده ؟ ألم يسمع ما وعده الله به من النكال فيرحم نفسه ويتوب ؟ ألم يسمع قوله : ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين ؟﴾[2] فيجهد فى الإحسان ؟

ألم يسمع قوله : « ورحمتى سبقت عذابى فيرغب فى رحمتى ؟ » .

وبعد : فإن علامة المؤمن الكامل - كما يقول سهل - ألا يخاف أحدًا دون الله .

(١) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٢) الأعراف : ٥٦ .

الباب الثانى

الطريق

الفصل الأول : الطريق فى جوه المادى .
الفصل الثانى : الطريق فى جو القدوة والتأسى .
الفصل الثالث : الطريق فى جوه الأخلاقى .
الفصل الرابع : الطريق فى جو التوبة .
الفصل الخامس : الطريق فى جو الإخلاص .
الفصل السادس : الطريق فى جو المعراج .
الفصل السابع : الطريق من زواية الولاية والكرامات .
الفصل الثامن : متناثرات عن الطريق فى الحكم والمواعظ والنصائح والتوجيهات

الفصل الأول

الطريق فى جوّه المادى

بلغ سهل النضوج ، والنضوج الروحى بتوفيق الله بعد جهاد ومجاهدة ، بعد ذكر وعبادة ، بعد صوم وسياحة : وحينما أذن الله له فى الدعوة إليه أخذ يدعو إليه على بصيرة ، ويرسم الطريق إليه على هدى .

والطريق الذى رسمه إنما هو نتيجة خبرة عالمة ، ونتيجة وصل إليها عالم مجرب لقد سار سهل مع التجربة الروحية فى مسالكها ، ومدارجها ، ومعارجها ، لقد عاشها ؛ لقد كان يحياها حياة الذكى المتبصر العالم ، لقد عاش التجربة الروحية طولاً وعاشها عرضًا ؛ لقد فنى فيها فكان هو هى ...

ورسمها .

كيف رسمها ؟ ما هى سماتها ؟ ما الطريق ؟

والطريق له أجواء مترابطة ، متلازمة أو متلاحمة ، ونبدأ ، بتيسير الله بالكتابة عن الطريق فى جوه المادى حسبما خطه سهل .

ونعنى بالطريق فى جوه المادى : الحياة من ناحية المأكل والمشرب .

وبعض الناس لا يبالى بطعامه وشرابه من ناحية الحل والحرمة ، وبعضهم لا يهتم الاهتمام الدقيق لذلك ، ولكن الصوفية يرون أن أكل

الحلال إنما هو الخطوة الأولى المادية فى الطريق إلى الله ومثلها فى هذا الجانب مثل التوبة فى الجانب الروحى ، يقول سهل : « من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم »[1] .

ومن عصت جوارحه ، ومن غلبته جوارحه فليس له فى طريق الله نصيب .

ولا مناص من الابتعاد عن أكل الحرام حتى لا تتمرد الجوارح ، وحتى لا يكون ارتكاب للإثم ، وأكل الحرام نفسه إثم باعث على الإثم .

وقد يقول قائل إن هذه المسألة أمرها هين ، فالناس عادة يأكلون الحلال من مرتباتهم ، أو من مزارعهم ، أو من مهنهم ...

بيد أن الصوفية لا ينظرون إلى الأمور هذه النظرة السهلة ، إنهم يتحرجون ويتساءلون : أدخل هذا المال ربا ؟

أأدى الإنسان فيه حق الله من الزكاة ؟

أأدى الإنسان فيه حق الله من ناحية الأمانة فى العمل ، ومن ناحية إتقانه : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ؟ وإن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل ، فهل كان العمل مجزيًا بالنسبة للأجر ؟

هل دخل هذا المال مال من الأيتام ؟

وأسئلة كثيرة من هذا النمط ، هى مظهر من مظاهر الحرص على أن يعيش فى الجو الحلال الصافى ، وذلك أن :

---

(١) الكواكب الدرية .

من أحب أن يكاشف بآيات الصديقين ، فلا يأكل إلا حلالاً ، ولا يعمل إلا فى سنة أو لضرورة[1] على حد تعبير سهل :

وإنه ، كما يقول : « من لم يكن مطعمه من الحلال ، لم يكشف عن قلبه حجاب ، وتسارعت إليه العقبات ، ولا تنفعه صلاته ، ولا صومه ، ولا صدقته »[2] .

وقد بين سهل النتيجة العامة ، لأكل الحرام بقوله :

« يأتى على الناس زمان يذهب الحلال من أيدى أغنيائهم وتكون أموالهم من غير حلها ، فيسلط الله بعضهم على بعض : يعنى بالأذى والمرافعات عند الحكام .

فتذهب لذة عيشهم ، ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا ، وخوف شماتة الأعداء .

ولا يجد لذة العيش إلا عبيدهم ومماليكهم ، وتكون سادتهم فى بلاء وشقاء وعناء وخوف من الظالمين .

ولا يستلذ بعيش يومئذ إلا منافق لا يبالى من أين أخذ ، ولا فيما أنفق ، ولا كيف أهلك نفسه ؟ »

(٢)

أكل الحلال ... ومع ذلك فإن هذا الحلال نفسه ، لا يؤدى إلى خير إذا أسرف الإنسان فيه :

---

(١) الكواكب الدرية .

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى .

« ذلك أن البطنة أصل الغفلة » كما يقول سهل :

والدنيا – كما يرى – حرام على صفوة خلق الله ، لا ينالون فيها إلا بقدر الضرورة »[1] .

« ومادامت النفس تشتهى المعصية ، فلا يصل للقلب شيء من نور الطاعة ، فأدبوا أنفسكم بالجوع والعطش »[2] .

وعامة الناس معنيون عناية شديدة بالأكل والشرب ، وبعضهم لا هم له إلا ذلك ، ويبين سهل أنواع عيش الناس ومنازلهم من ذلك فيقول :

« العيش على أربعة أوجه :

عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء ، فى العلم وانتظار الوحى وعيش الصديقين ، فى الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالمًا كان أو جاهلاً زاهدًا كان أو عابدًا ، فى الأكل والشرب » .

ويقول سهل : الضرورى للأنبياء والقوام الصديقين .

والقوت للمؤمنين ، والمعلوم للبهائم .

ويعنى بالمعلوم . الأكل الذى ليس ضرورة ، ولا قوامًا ، ولا قوتًا إنما هو زائد على ذلك ، على أن الشبع بمعناه الحقيقى لا يؤدى إليه الأكل فحسب .

فمن ظن أنه يشبع من الخبز : جاع » .

---

(١) الكواكب الدرية : للمناوى .

(٢) الكواكب الدرية .

والإنسان يمكنه أن يعيش أيامًا دون أن يشعر بلهيب الجوع ، وقد سئل سهل عمن لا يأكل أيامًا : أين يذهب لهب جوعه ؟

فقال : يطفئه نور القلب .

على أنه من الطريف أن يسأل رجل سهلاً ، فيقول له :

يا أستاذ ، أى شيء القوت ؟

قال : الذكر الدائم .

قال الرجل : لم أسألك عن هذا ، إنما سألتك عن قوام النفس .

فقال : يارجل لا تقوم الأشياء إلا بالله .

فقال الرجل : لم أعن هذا ، سألتك عما لابد منه .

فقال : يا فتى لابد من الله .

كان سهل ، يوجه إلى الله حتى حينما يسأل عن الناحية المادية .

وبعد : فهذه بعض أقوال سهل فيما يتعلق بذلك ، إنه يقول

لا يرى فى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام ، والاقتداء بالمصطفى ﷺ فى أكله ويقول :

لم ير الأكياس شيئًا أنفع من الجوع للدين والدنيا .

ويقول :

لا أعلم شيئًا أضر على طلاب الآخرة من الأكل .

ويقول :

جعل العلم والحكمة من الجوع ، وجعل المعصية والجهل فى الشبع .

ويقول :

ماعبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال ، وقد قال فى الحديث : « ثلث للطعام » فما زاد فإنما يأكل من حسناته .

ويقول :

إنما صار الأبدال أبدالا بإخماص البطون والصمت والسهر والخلوة .

ويقول :

رأس كل بر بين السماء والأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما الشبع .

ويقول :

إقبال الله على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء كله .

ويقول :

لو كانت الدنيا دما عَبِيطًا كان قوت المؤمن منها حلالاً لأنه أكله عند الضرورة بقدر القوام فقط :

ويقول :

إنما حجب الخلق عن مشاهدة الملكوت ، وعن الوصول : بسوء المطعم وأذى الخلق .

(٣)

الأكل الحلال وعدم الإسراف فيه :

ولابد من أمر ثالث حتى ننتهى من : « الطريق فى جوه المادى » .

إن الناس يتكالبون على الحياة ويجرون وراء العيش فى غير إجمال ولا رفق فى الطلب وإنما فى نهم وفى تهافت .

ويحاول سهل ، أن يجعل الناس يجملون في الطلب ، ويترفقون في الجرى وراء الدنيا ، ويجعلون لله حسابا فى تقديرهم وتصريفهم للأمور ، فيقول لهم :

« إن المؤمن أكرم على الله من أن يجعل رزقه من حيث يحتسب ، يطمع المؤمن فى موضع فيمنع من ذلك ويأتيه من حيث لا يحتسب »[1] .

« إن الله تعالى خلق الخلق ولم يحجبهم عنه ، وإنما جاءهم الحجاب من تدبيرهم واختيارهم مع الله تعالى ، وذلك هو الذى كدر على الخلق عيشهم » .

وينتهى سهل من مشكلة الاكتساب بقوله : « من طعن على الاكتساب ، فقد طعن على السنة » .

وذلك أن رسول الله ، ﷺ ، كان يحث دائمًا على العمل والكسب ، فيقول ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منَعوه » رواه البخارى .

وعن المقداد بن معد يكرب ، رضى الله عنه ، عن النبى ، ﷺ قال :

---

(١) حلية الأولياء .

« ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يديه ، وإن نبى الله داود عليه السلام ، كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى .

وقال ﷺ :

« ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا ، فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة » رواه البخارى ومسلم والترمذى .

وينتهى سهل أيضا بأن :

« من طعن على التوكل ، فقد طعن على الإيمان » وذلك أن الله ، سبحانه وتعالى ، يقول :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرًا﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[2] .

ويقول الرسول ﷺ :

« لو توكلتم على الله حق التوكل ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا » من طعن على السنة ، ومن طعن على التوكل ، فقد طعن على الإيمان .

ولابد إذن من تنسيق ينسجم فيه الاكتساب مع التوكل .

---

(١) سورة الطلاق : الآيتان ٢ ، ٣ .
(٢) التوبة : ٥١ .

ولابد من الاكتساب ولابد من تفويض الأمر فى النتيجة لله ، سبحانه وتعالى ولابد من العمل المتقن ، ولابد من ذلك من أن يكل الإنسان أمر اجتناء الثمرة إلى الله ، سبحانه وتعالى .

ولابد من أن يعقل الإنسان ناقته ، ثم يتوكل على الله فى أمر حفظها ، يقول ﷺ : « اعقلها وتوكل » .

فإذا ما تأتى التنسيق بين الاكتساب والتوكل ، هدأ المؤمن واستراحت نفسه وأجمل فى الطلب ورضى بما قسمه الله له ، وغمره نوع من السكينة ويسرت عليه أمور الحياة .

الاكتساب والتوكل : ذلك قانون الإيمان ، وقانون الصوفية وما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده وإبراهيم بن أدهم – إمام من أئمة الصوفية ، ومنارة من منارات التقوى – كان متوكلاً على الله ، وكان يعمل فيأكل من عمل يده .

وهنا تتهافت كل الاعتراضات – اعتراضات أهل الدنيا – التى تتصل بالكسب نفيًا لوجوده فى جو الصوفية ، أو التى تتصل بالتوكل تحريفًا لمعناه وذهابًا به إلى غير سبيله ، ومن الحق أن :

« من طعن على الاكتساب فقد طعن على السنة ، ومن طَعن على التوكل فقد طعن على الإيمان .

« لقد اهتم سهل اهتمامًا كبيرًا بأكل الحلال ، وذلك لما لهذا الجانب من مكانة كبرى فى الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى ، وفى كسب الحلال .

ولبيان هذه المنزلة نذكر الحديثين التاليين عن رسول الله ﷺ :

روى ابن مردويه – بسنده – عن ابن عباس قال :

« تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا﴾[1] فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال :

يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

وروى أحمد ومسلم بسندهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين : ﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم﴾[2] .

وقال : ﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون﴾[3] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » ..

ومن طريف ما يروى فى ذلك عن سهل – وهى قصة لها مغزاها العميق – أنه قال مرة : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة على أولياء

---

(١) البقرة : الآية : ١٦٨ .
(٢) المؤمنون الآية : ٥١ .
(٣) البقرة : الآية : ١٧٢ .

زمانى » ، فبلغ ذلك أبا زكريا الساجى وأبا عبد الله الزبيرى ، فذهبا إليه ، فقال له أبو عبد الله الزبيرى – وكان جسورا لأنه ضرير : بلغنا عنك أنك تقول : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة الله على أولياء زمانى » ، فماذا صرت ؟ هل أنت نبى أو صديق ؟

فقال سهل : لم أذهب حيث ظننت ، ولست أنا نبيًّا ، إنما قلت هذا لأننى صححت أكل الحلال دون غيرى .. فقال له : وأنت صححت الحلال قال : نعم ، لا آكل دائمًا إلا حلالاً فقال له الزبيرى : وكيف ذلك ؟

فقال له سهل : قسمت عقلى ومعرفتى وقوتى على سبعة أجزاء ، فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء ويبقى جزء واحد ، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسى أكلت بقدر البلغة خوفا أن أكون أعنت على نفسى ، ولترد على الستة الأخرى ، فبهذا صح الحلال ..

فقال الزبيرى : نحن لا نقدر على المداومة على هذا ، ولا نعرف أن نقسم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء ، واعترف بفضل سهل رضى الله عنه .

الفصل الثانى

الطريق فى جوّ القدوة والتأسى

ونريد الآن – بتوفيق الله – أن نتدرج فى الطريق : سائرين مع أجوائه المترقية ، ومع منازله المتسامية ، حتى نصل مع « سهل » إلى تصوير الغاية التى يهدف إليها الذاهبون إلى الله ، على الأسلوب الذى سلكه سهل ورسمه ، وعلى الطريقة التى سار عليها وتقرب إلى الله بها .

والسؤال الذى يدور على الألسنة دائما هو :

ما مدى صلة الطريق بالسنة النبوية ، بسلوك رسول الله ﷺ ؟ إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[1] .

فما هو موقف سهل من هذه الأسوة ؟ وما هو مدى التزامه ؟

إن اتباع الهوى هو سبيل المنحرفين .

يقول سهل :

« كل عبد يفعل طاعة أو يتخلى عن معصية بغير اقتداء فهو عيش النفس » أى حظها وهواها ، إنه وقد تخلى عن الاتباع إيجابا أو سلبا ليس إلا هوى .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

يقول الله تعالى :

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾[1] .

أما سبيل المؤمنين فإنه الاتباع .

يقول سهل :

« أيما عبد قام بشيء مما أمر الله به من أمر دينه ، فعمل به ، وتمسك به ، فاجتنب ما نهى الله ، تعالى عنه عند فساد الأمور ، وعند تشويش الزمان ، واختلاف الناس فى الرأى ، والتفرق ... إلا جعله الله إمامًا يقتدى به ، هاديًا مهديًّا ، قد أقام الدين فى زمانه ، وأقام الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وهو الغريب فى زمانه ، الذى قال رسول الله ﷺ عنه :

« بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ » .

وما من عبد دخل فى شيء من السنة ، وكانت نيته متقدمة فى دخوله الله ، إلا خرج الجهل من سره ، شاء أو أبى ، بتقديمه النية .

ولا يعرف الجهلَ إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم » (إن الاتباع علم ، وعدم الاتباع جهل ، إنه جهل مهما بلغ صاحبه من الثقافة ، وذلك أن كل رأى فى عالم الأخلاق لا تأسى فيه إنما هو رأى ظنى ،

---

(١) الفرقان : ٤٣ — ٤٤ .

وهو رأى تسهل معارضته برأى آخر ، ويسهل نقضه برأى ثالث ، إنه إذن جهل حيث لا يقين فيه ، قال الله تعالى) :

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكِّمُوكَ فيما شَجَر بينهم ، ثُمَّ لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ (١) .

وما من شك فى أن الفوضى الأخلاقية التى نعيش فيها ، والانحراف فى الشباب وفى الشيوخ الذى تعانى منه المجتمعات المعاصرة : إنما مرجعه إلى المحاولات الآثمة التى يدعو إليها الملاحدة من فصل الأخلاق عن الدين ، وإذا ما فصلت الأخلاق عن الدين : فإنها تتعرض لآفات كثيرة منها :

١ – أنها تفقد قدسيتها حيث يصبح منبعها بشريًّا لا إلهيا ، وحيث تصبح بذلك رأيًا لا عقيدة .

٢ – تصبح جدلاً : ينكرها جملة من ينكرها : ينكرها السوفسطائيون ، وينكرها نيتشه ، وينكرها الوجوديون ، ولا يرى هؤلاء ، ولا أولئك للفضيلة معنى ثابتًا ولا للخير مبادئ حقيقية .

٣ – تصبح نسبية : تتقلب مع أهواء الفرد ، ومع نزوات المنحرفين ، ومع شهوات المبطلين .

وينتج عن ذلك كله : اضطراب المجتمع ، وفساد الجماعة ، لا يأمن الناس على دمائهم ولا على أموالهم ولا على أعراضهم .

---

(١) النساء آية : ٦٥ .

ومن أجل ذلك كان التأسى علمًا ، وكان حكمة أيضًا : حكمة بالنسبة للفرد : يأمن ويهدأ ، وحكمة بالنسبة للمجتمع : يستقر ويرقى .

وأما عدم التأسى فإنه جهل ، وإنه لسفه أيضًا :

﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[1] .

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[2] .

« واتباع السُّنن الدينى : ذلك هو طريق الهداية ، قال الله تعالى : ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[3] وكلمة سهل عن أصول الطريق مشهورة معروفة ، إنه يقول : أصولنا سبعة أشياء :

التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق ، ويتحدث سهل فى تفسيره عن الاقتداء برسول الله ﷺ فيقول فى قوله تعالى : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[4] .

---

(١) الأعراف آية : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٢) النساء آية : ٦٥ .
(٣) الأعراف : ١٥٨ .
(٤) الحشر : ٧ .

قال : « أصول مذهبنا ثلاث » :

أكل الحلال ، والاقتداء بالرسول ﷺ فى الأخلاق والأفعال ، وإخلاص النية فى جميع الأعمال ، وقال : ألزموا أنفسكم ثلاثة أشياء ، فإن خير الدنيا والآخرة فيها : صحبتها بالأمر والنهى بالسنة ، وإقامة التوحيد فيها وهو اليقين ، وعلمًا فيه اتصال الروح .

وصاحب هذه الثلاثة أعلم بما فى بطن الأرض مما على ظهرها ، ونظره فى الآخرة أكثر من نظره فى الدنيا ، وهو فى السموات أشهر بين الملائكة منه فى الأرض بين أهله وقرابته ، فقيل : ما العلم الذى فيه إيصال الروح ؟

قال : « علم قيام الله عليه والرضا » .

﴿فمن اتَّبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾[1] .

قال : « هو الاقتداء وملازمة الكتاب والسنة ، فلا يضل عن طريق الهدى ، ولا يشقى فى الآخرة والأولى » انتهى

وقال : « من لم يكن اقتداؤه فى جميع أموره بالنبى ﷺ فهو ضال »

﴿إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾[2] .

قال : « هم الذين صدقوا الله فى السر والعلانية ، واتبعوا سنة نبيهم ﷺ ، ولم يبتدعوا بحال » .

﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم﴾[3] .

---

(١) طه ١٢٣ .
(٢) الحج : ١٤ .
(٣) الجمعة ٢ .

قال : « الأميون هم الذين صدقوا محمدًا ﷺ ، نسبوا إليه لاتباعهم إياه واقتدائهم به ، ومن لم يقتد به فليس من أمته » .

يقول سهل :

« لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر » .

ومن أجمل ما كتبه سهل فى الاتباع قوله بمناسبة قول الله تعالى : ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾[1] قال : حسن العمل الاستقامة عليه بالسنة ، وإنما مثل السنة فى الدنيا مثل الجنة فى الآخرة ، ومن دخل الجنة سلم ، كذلك من لزم السنة فى الدنيا سلم من الآفات .

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لو أن رجلاً ارتكب جميع الكبائر ثم لم يكن فيه شىء من هذه الأهواء والبدع لرجوت له ، ثم قال : من مات على السنة فليبشر ثلاث مرات .

وقال سهل : لا يرفع الحجاب عن العبد حتى يدفن نفسه فى الثرى ، قيل له : كيف يدفن نفسه ؟ قال : يميتها على السنة ، ويدفنها فى اتباع السنة ، لأن لكل شىء من مقامات العابدين مثل الخوف والرجاء والحب والشوق والزهد والرضى والتوكل غاية إلا السنة فإنه ليست لها غاية ونهاية ...

فسئل عن معنى قوله : ليت للسنة غاية ، فقال : لا يكون لأحد مثل خوف النبى ﷺ أو حبه أو شوقه أو زهده أو رضاه أو توكله أو أخلاقه ، وقد قال الله تعالى :

(١) الكهف : ٣٠ .

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] .

ويقول فى تفسير قوله تعالى : ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾[2] : أى يزيد الله الذين اهتدوا بصيرة فى إيمانهم بالله وفى اقتدائهم بمحمد ﷺ وهو زيادة الهدى والنور المبين .

ويقول فى تفسير قوله سبحانه :

﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾[3] .

أى فلما غايظونا بالإقامة على المخالفة فى الأوامر وإظهار البدع فى الدين وترك السنن ، اتباعًا لوجود الأهواء ، نزعنا نور المعرفة من قلوبهم وسراج التوحيد من أسرارهم ، ووكلناهم إلى أنفسهم ، وما اختاروه فضلوا وأضلوا ، ثم قال :

« الاتباع الاتباع ، الاقتداء الاقتداء ، فإنه سبيل السلف ، ما ضل من اتبع ، وما نجا من ابتدع » .

ويقول فى تفسيره لقول الله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا﴾[4] .

« يعنى بطاعة الله واتباع السنن » .

ومما لا شك فيه أن سهلاً كان متمثلاً – فى ذلك – لما روى عن رسول الله ﷺ :

---

(١) القلم الآية : ٤ .
(٢) مريم الآية : ٧٦ .
(٣) الزخرف الآية : ٥٥ .
(٤) التحريم الآية : ٦ .

فعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ :

« من أكل طيبا ، وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة » .

قالوا : يا رسول الله ، إن هذا فى أمتك اليوم كثير ..

قال : « وسيكون فى قوم بعدى »[1] .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس فى حجة الوداع فقال :

« إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا ، .. إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا : كتاب الله وسنة نبيه »[2] .

وعن مجاهد قال :

كنا مع ابن عمر – رحمه الله – فى سفر ، فمر بمكان فحاد عنه ، فسئل : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت[3] ..

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يأتى شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك[4] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[5] .

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت وغيره . وحاكم واللفظ له وقال : صحيح الإسناد .

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد وله أصل فى الصحيح .

(٣) رواه أحمد والبزار بإسناد جيد .

(٤) رواه البزار بإسناد لا بأس به .

(٥) رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

وعن جابر رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين – ويقرن بين إصبعيه – السبابة والوسطى – ويقول :

« أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .. ثم يقول :

أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعًا فإلى وعلىّ »[1] .

وعنْ عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبى مجاب : الزائد فى كتاب الله عز وجل ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط على أمتى بالجبروت ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله ، والمستحل حرمة الله ، والمستحل من عترتى ما حرم الله ، والتارك للسنة »[2] .

وعن عمرو بن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انى أخاف على أمتى من ثلاث : من زلة عالم ، ومن هوى متبع ، ومن حكم جائر »[3] .

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه .
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد ولا أعرف له علة ..
(٣) رواه البزار والطبرانى والترمذى .

الفصل الثالث

الطريق فى جوّه الأخلاقى

يقول رسول الله ، ﷺ :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولقد أوحى الله تعالى ، منذ أن كانت الأديان – الأخلاق الكريمة تتوالى على لسان رسله الأطهار ، وكان تمام هذه الأخلاق وكمالها إنما هو : رسولنا وإمامنا ، صلوات الله وسلامه عليه :

ولقد وصفه الله تعالى ، بقوله :

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] .

ووصفه ، سبحانه ، بالرأفة والرحمة :

وحدد ، سبحانه ، طابع الرسالة الإسلامية بأنه الرحمة : فقال سبحانه

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[2] .

وقال ، صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

وعلى أساس من عناية الإسلام بالأخلاق الكريمة قامت دعوة الصوفية إلى الأخلاق الفاضلة .

---

(١) القلم الآية : ٤ .

(٢) الأنبياء الآية : ١٠٧ .

ولقد حدد كثير منهم التصوف بأنه الأخلاق وقال سهل يحدد التصوف :

« التصوف ليس رسمًا ، ولا علمًا ، ولكنه خلق :

لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة .

ولو كان علما لحصل بالتعليم .

ولكنه تخلق بأخلاق الله .

ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » . ولقد ذكر الناس – عند سهل – الكرامات وأخذوا فى الحديث عنها مكبرين لها مشيدين بأمرها فقال سهل :

« وما الآيات ؟

وما الكرامات ؟ شيء ينقضى لوقته .

ولكن أكبر الكرامات ، أن تبدل خلقًا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود » ، ويحمل سهل على المعاصى حملة مستفيضة ، ويقدم أمر الانتهاء عن المعاصى على عمل الطاعات .

يقول سهل :

« ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من اجتنب ما نهى الله عنه صار حبيب الله ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما﴾[1] .

---

(١) النساء آية ٣١ .

ولا يجتنب الآثام إلا صدِّيق مقرب .
أما أعمال البر فإنه يعملها البر والفاجر » .

وقال مرة أخرى : أعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يجتنب المعاصى إلا صديق ، والمعصية الكبرى ، المعصية التى يراها الصوفية أقبح المعاصى ، المعصية التى تقف عقبة أمام كل تقدم فى طريق الله هى ما عبر عنها سهل بقوله : « ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب »[1] ولقد قيل له مرة :

ما أغرب الأشياء ؟

فقال : « قلب عرف الله ثم عصاه »[2] .

وإذا أقام العبد على معصية : فإن جميع حسناته تكون ممزوجة بالهوى ، لا تخلص له حسناته ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتخلص عن هواه حتى يخرج من جميع ما يعرف من نفسه مما يكرهه الله تعالى .

ولقد صور الله تعالى – كما يذكر سهل – الطبائع المنحرفة ، ورسم طريق العلاج ؛ فطبع البهائم يصوره الله بقوله : ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾[3] .

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾[4] .

---

(١) الكواكب الدرية .
(٢) وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى : الشيطان سوّل لهم وأملى لهم﴾ ٢٥ من سورة محمد .
(٣) الحجر : ٣ .
(٤) محمد : ١٢ .

وطبيعة أهل الدنيا : اللهو ، واللعب ، والزينة ، والتفاخر ، والتكاثر : فكل حياتهم :

« لعب ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد واستعبد الله هؤلاء وأولئك - ليخرجهم من طباعهم إلى طبائع تتسامى - بالتسبيح والتقديس والتحميد والتكبير والشكر ، حتى يسلموا من طبع الشياطين : اللهو واللعب ، ويقتربوا من طباع الملائكة ، يقول تعالى : ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه ، وله يسجدون﴾[1] .

ويقول سبحانه :

﴿وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يَسْتَحْسِرُون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾[2] .

ومن الناس من تكون طبيعته طبيعة السحرة ، طبيعة المكر والخديعة ، ويقول الله عن هذه الطبيعة :

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[3] .

ويقول سبحانه :

﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[4] .

---

(١) الأعراف : ٢٠٦ .
(٢) الأنبياء آية : ١٩ ، ٢٠ .
(٣) الأنفال آية : ٣٠ .
(٤) النساء آية : ١٤٢ .

ويصور الله العلاج بالنسبة لهؤلاء : لقد استعبدهم الله بالاقتداء بالنبى ﷺ ، بالنصيحة ، والرحمة ، والصدق ، والإنصاف ، والاستعانة بالله ، والصبر على ذلك إلى الممات[1] .

ومن الناس من طبيعته طبيعة الأبالسة ، وطبيعة الأبالسة : الإباء والاستكبار ، يقول الله سبحانه عن إبليس :

﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾[2] وعلاج الطبيعة الإبليسية : الدعاء ، والتضرع والالتجاء إلى الله ؛ لقد استعبدهم بذلك حتى يسلموا من طبع الأبالسة :

﴿قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾[3] ؟

وأحب لهم الاعتصام بحبل الله : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾[4] .

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾[5] .

على أن شيئين يذهبان خوف الله من قلب العبد : الدعوى ، والمعصية وصاحب المعصية إذا خوفته واحتجبت عليه بالإيمان : ينقاد ويخضع ، ويقر بالخوف ، وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ، ولا ينقاد للخوف البتة .

---

(١) حلية الأولياء .
(٢) البقرة : الآية : ٣٤ .
(٣) الفرقان آية : ٧٧
(٤) آل عمران آية : ١٠٣ .
(٥) آل عمران آية : ١٠١ .

ولا يوجد قلب أخلى من الخير ، ولا أقصى ولا أبعد من خوف الله ، من قلب المدعى[1] .

على أنه من الواجب أن نتنبه إلى الجهل الدينى ، فإنه من الأسباب الكبرى فى المعاصى ، فإنه فى حقيقة الأمر إذا نظرنا إلى هؤلاء المؤثرين للدنيا المنغمسين فيها ، المرتكسين فى مساراتها ، فإننا نجده الجهل : يقول سهل : « أصل الدنيا الجهل » وفرعها الأكل ، والشرب ، والطيب ، والنساء ، والمال ، والتفاخر ، والتكاثر ، وثمرتها المعاصى .

وعقوبة المعاصى الإصرار .

وثمرة الإصرار الغفلة .

وثمرة الغفلة الاجتراء على الله .

يقول الله تعالى :

﴿كلاَّ بلْ ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[2] .

واستمر سهل يستفيض فى التحذير من المعاصى : منبهًا ، ومعرفًا ، ومبينًا ، ولقد آن لنا أن ننتقل إلى الطاعات وبيانها على ما وضحه سهل فى أمرها :

إن الانغماس فى الدنيا والارتكاس فى موبقاتها شر :

« والدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا العمل به ، والعمل كله هباء منثور إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه : أنت منه على وجل حتى تعلم هل قبل أم لا »[3] .

---

(١) حلية الأولياء .
(٢) المطففين آية : ١٤ .
(٣) الحلية .

وينصح سهل من أراد الاتجاه إلى حياة الخير قائلاً :

« لا تفتش عن مساوئ الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن فتش وابحث فى أخلاق الإسلام : ما حالك فيه حتى تسلم ، ويعظم قدره فى نفسك وعندك ، وتجتهد فى التلبس بتلك الأخلاق »[1] .

فتش عن أخلاق الإسلام ، واجتهد فى التلبس بها .

وأول ما ينبغى فى ذلك : مخالفة الهوى ، ومخالفة الهوى – حسبما يرى سهل – من أفضل ما عبد الله به .

مخالفة الهوى فى سبيل الله ؛ وما كانت مخالفة النفس فى يوم من الأيام هدفًا فى نفسها ، إنها – فى الوضع الدينى السليم – ليست غاية ، وإنما هى وسيلة لتيسير سبيل الصراط المستقيم الاقتداء والاتباع والتأسى برسول الله ﷺ ، إنها وسيلة تيسر الاستجابة إلى الله ورسوله .

وإذا ما أراد الإنسان السير على الطريق المستقيم فينبغى أن :

يطهر العلم من الجهل بالاتباع والتأسى .

ويطهر الذكر من النسيان بعدم الغفلة .

ويطهر الطاعة من المعصية[2] بالانقطاع عن الشهوات المنحرفة .

بل إن الخروج من الشهوات – حسبما يرى سهل – خروج من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

(١) الكواكب الدرية والحلية .
(٢) الحلية .

وأول ما ينبغي للعبد أن يتخلق به ثلاثة أخلاق ، وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المئونة ، والرفق فى كل شىء ، والحذر أن يميل فى الهوى ، أو مع الهوى ، أو إلى الهوى .

ثم لابد له من ثلاث أحوال أخر ، وفيها : اكتساب العلم العالى (أى العلم بالتوحيد) ، والحلم ، والتواضع .

ثم لابد له من ثلاثة أخر وفيها : اكتساب المعرفة ، وأخلاق أهلها : السكينة ، والوقار ، والصيانة والإنصاف . ولابد لإحكام التعبد من : الحياء ، وكف الأذى ، وبذل المعروف ، والنصيحة .

الفصل الرابع

الطريق فى جوّ التوبة

لقد احتل موضوع التوبة من نفس سهل مكانًا كبيرًا .

وكان سهل على حق فى اهتمامه بموضوع التوبة : وذلك أن أول خطوة يخطوها الإنسان فى معراجه إلى الله تعالى إنما هى التوبة الصادقة .

ولقد حث الله سبحانه وتعالى عليها بشتى الأساليب ، وفتح سبحانه أبوابها على مصاريعها .

لقد أمر بها سبحانه فى القرآن الكريم :

﴿وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [1] .

وحث عليها فى الأحاديث بأسلوب فى غاية الجمال :

« يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم » .

وحث عليها رسول الله ﷺ فى أساليب مؤثرة :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار .

ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ويقول صلوات الله عليه وسلامه :

---

(١) النور الآية : ٣١ .

« كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

أما من الناحية العملية الواقعية ، فإن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله ويستغفره كثيرًا .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »[1] .

وعن الأغر المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرّة »[2] .

ويقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الأغر المزنى - :

« يأيها الناس توبُوا إلى الله ،فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة »[3] .

ويقول سبحانه : ﴿إن الله يحب التوابين﴾[4] .

والله سبحانه علق حبه على كثرة التوبة .

التوبة ولو لم يكن ذنب ، التوبة ولو لم تكن هفوة ، التوبة باعتبارها عبادة ، التوبة باعتبارها من الأبواب التى يدخل منها الإنسان إلى حب الله له .

وإذا أمعنا النظر فى موضوع التوبة نجد أنه تلازم الإنسان طيلة حياته ، وإذا كانت مقامات السالكين إلى الله يسلم بعضها إلى بعض ، ويترقى الإنسان فيها من مقام ينتهى منه إلى مقام يسير فيه إلى غايته

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) البقرة الآية : ٢٢٢ .

ليسلمه إلى مقام ثالث ؛ وهكذا ، فإن التوبة مقام أساسى يسلم إلى ما بعده ، ولكنه لا ينتهى ، وإنما يلازم الإنسان مهما ترقى فى معراجه إلى الله سبحانه ، ومن أجل ذلك كان الواقع فى حياة رسول الله ﷺ الاستمرار فى التوبة ، يوميًا يتوب صلوات الله وسلامه عليه توبة عبادة ، توبة تضرع ، توبة انكسار إلى الله ، طلبًا لمرضاته ، توبة تواضع وخشية ، توبة يدخل بها إلى حب الله سبحانه له ، التوبة إنها شعار كل صادق فى اتجاهه إلى الله .

وإذا كانت لم تأخذ حظها من الاهتمام عند بعض الناس فإنها ملكت على سهل شعوره ووجدانه ، وبلغ من أهميتها عنده أن أعلن أن :

« التوبة فرض على العبد فى كل نفس » .

والواقع أنه إذا سار الإنسان فى جو من الفهم الذى يتسم بسعة الأفق بعيدًا عن قيود الألفاظ فإنه يستطيع أن يفهم من هذه الجملة أن المقصود بها أن يستمر الإنسان « متذكرًا » لله سبحانه فى جميع لحظاته وتكون على هذا الوضع « التوبة ذكر » .

وما هو الذكر إذا لم يكن تضرعًا إلى الله ومراعاة لحدوده أمرًا ونهيًا ؟

وما هى التوبة إذا لم تكن ذكر الله ومراعاة له فى الحركات والسكنات ؟

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن أولى الألباب فيذكر من صفاتهم أنهم : ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ..﴾[1] .

(١) آل عمران الآية : ١٩١ .

أى فى كل أحوالهم ، أو ... فى كل أنفاسهم .

إنه إذا حسنت النية ، أمكن أخذ الأمور من جانب رحابة الصدر ، وسعة الأفق .

ولكن هذه الكلمة الجميلة من سهل « التوبة فرض على العبد فى كل نفس » أقامت عليه الدنيا وأقعدتها ؛ وما كان ذلك عن إخلاص ، كلا ، وإنما عن حسد ؛ يقول صاحب الكواكب الدرية :

« وأكثر فى الأرض من علوم الحقائق فحسده فقهاء بلده ، فنسبوه إلى عظائم بسبب قوله :

« التوبة فرض على العبد فى كل نفس » .

ولم يزالوا به حتى أخرجوه وجماعته من البلد إلى البصرة فمات بها .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية :

« ولا نعرف من حياة سهل التى كانت تتسم ، فيما يظهر بالهدوء واعتزال الناس ، إلا حادثة واحدة هى نفيه إلى البصرة ، إبان فتنة الزنج (حوالى سنة ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م) حين أنكر علماء الأهواز قوله بأن التوبة فرض .

أمّا رأى سهل فى التوبة فى صورة واضحة فيتبين من النصوص التالية التى تحدث فيها سهل عن التوبة :

قوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا﴾[1] . قال : التوبة النصوح ألاَّ يرجع ، لأنه صار من جملة الأحبة ، والحِبُّ لا يدخل فى شىء لا يحبه الحبيب .

وقال : علامة التائب أن لا تقله أرض ولا تظله سماء إلا هو متعلق بالعرش وصاحب العرش ، حتى يفارق الدنيا ، ولا أعرف فى هذا الزمان أقل من التوبة ، إذ ليس منا أحد أتاه ملك الموت إلا ويقول : دعنى أفعل كذا وكذا ، دعنى أتنفس ساعة ، ثم قال : إن التائب المخلص ، [تاج] ولو (كانت توبته) مقادر ساعة ولو مقدار نفس واحدة قبل موته .

وقال سهل : ليس شىء فى الدنيا من الحقوق أوجب عَلَىَّ للخلق من التوبة ، فهى واجبة فى كل لمحة ولحظة ، ولا عقوبة عليهم أشد من فَقْدِ علم التوبة ، فقيل : ما التوبة ؟ فقال : أن لا تنسى ذنبك .

وقال : أول ما يؤمر به المبتدئ التحول من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة ، وهى التوبة ، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت ، ولا يصح له الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا تصح له الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح له أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى ، ولا يصح له أداء الحق إلا بحفظ الجوارح والقلب ، ولا يصح له ما وصفنا حتى يستعين بالله عز وجل على جميعه .

---

(١) التحريم الآية : ٨ .

فقيل : ما علامة صدق التوبة ؟ قال : علامتها أن يدع ما له فضلاً عما ليس له .

وسئل سهل عن الرجل يتوب ويقلع من ذلك الذنب ثم يخطر ذلك بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة ذلك الذنب السيئ ، كيف الحيلة فيه ؟ فقال : وجدان الحلاوة من الطبع لا يتحول فيصير المحبوب مكروهًا ، ولكن يقهر عزم القلب فيرجع فى ذلك إلى الله عز وجل ، ويرفع إليه شكواه ، ويلزم نفسه وقلبه الإنكار ولا يفارقه ، فإنه إن غفل عن الإنكار طرفة عين تخوفت عليه أن لا يسلم منه ، قال : دعوا القال والقيل كله فى هذا الزمان ، عليكم بثلاث : « توبوا إلى الله عز وجل مما تعرفونه بينكم وبينه ، وأدوا مظالم العباد التى قبلكم فإذا أصبحتم فلا تحدثوا أنفسكم بالمساء ، وإذا أمسيتم فلا تحدثوا أنفسكم بالصباح ، لأن الأحداث قد كثرت والخطر عظيم » ، فاتقوا الله وألزموا أنفسكم التوبة ، وقال : التائب يتقى المعصية ويلزم الطاعة ، والمطيع يتقى الرياء ، ويلزم الذكر ، والذاكر يتقى العجب ويلزم نفسه التقصير .

قيل : ما التوبة ؟ قال أن تبدل بدل الجهل العلم ، وبدل النسيان الذكر ، وبدل المعصية الطاعة ، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها .

قال سهل : ما عصى الله تعالى أحد إلا بجهل ، ورب جهل أورث علمًا ، والعلم مفتاح التوبة ، والإصلاح صحة التوبة ، من لم يصلح

توبته فعن قريب تفسد توبته لأن الله تعالى يقول : ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾[1] .

وقال : « لا تصح التوبة لأحدكم حتى يدع الكثير من المباح مخافة أن يخرجه إلى غيره ، كما قالت عائشة رضى الله عنها :

اجعلوا بينكم وبين الحرام سترًا من الحلال ، كان رسول الله ﷺ يدعنا بعد الطهر ثلاثا حتى تذهب فورة الدم » .

وقال : « التائب من يتوب عن غفلته فى كل لمحة » .

ويقول : « ما من عبد أذنب ذنبًا ولم يتب إلا جره ذلك الذنب إلى ذنب آخر ، وأنساه الذنب الأول ؛ وما من عبد عمل حسنة إلا جرته تلك الحسنة إلى حسنة أخرى وبصره عقله تقصيره فى الحسنة الأولى ، لكى يتوب من تقصيره فى حسناته الماضية ، وإن كانت خالية صحيحة » .

---

(١) النحل الآية : ١١٩ .

الفصل الخامس

الطريق فى جوّ الإخلاص

تحتل فضيلة الإخلاص فى الإسلام مكانة كبيرة : إنها من الأسس الأصيلة فى قبول الأعمال مع الإيمان ، واتباع السنة ، ولن يقبل الله الأعمال ما لم تكن خالصة لوجهه .

ولقد وردت فى ذلك آيات كثيرة ، وأحاديث عدة ، فمن الآيات قوله تعالى :

﴿ألا لله الدين الخالص﴾[1] .

فما لم يكن خالصًا فليس لله فيه نصيب ، أى لا يتقبله سبحانه ، ولا يثيب عليه ، وهو مردود فى وجه صاحبه .

ويقول الله تعالى فى حديث قدسى :

« أنا خير شريك ، من عمل لى عملاً وأشرك فيه غيرى ، تركته لغيرى » .

ويقول رسول الله ﷺ :

« من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة : فارقها والله عنه راض » .

(١) الزمر الآية : ٣ .

وما من شك أن بين معنى كلمة « الإسلام » وكلمة « الإخلاص » صلة لا تنفصم ، فالإسلام هو أن يسلم الإنسان قلبه لله ؛ إنه إسلام الذات – ممثلة فى القلب – لله وحده لا شريك له .

ولقد سئل رسول الله ﷺ ما هو ؟

فقال : « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

وهذا هو الإخلاص ؛ بل لقد سئل رسول الله ﷺ ، عن الإيمان ما هو ؟ فقال : الإخلاص .

ولهذه الأهمية لمعنى الإخلاص فى الإسلام ، اهتم به الصوفية اهتمامًا كبيرًا ؛ وقد احتل فى تفكير سهل مكانة تتناسب مع أهميته ؛ يقول سهل :

« نظر الأكياس فى الإخلاص فلم يجدوا شيئًا غير هذا ، وهو أن تكون حركاته وسكناته فى سره وعلانيته لله عز وجل وحده لا يمازجه هوى ولا نفس » .

وإذا سألت سهلاً عن الإخلاص ما هو ؟

قال : الإجابة ، فمن لم تكن له الإجابة فلا إخلاص له .

وقال : الإخلاص على ثلاث معان :

إخلاص العبادة لله ، وإخلاص العمل له ، وإخلاص القلب له » .

وليس أمر الإخلاص هينًا سهلاً ، فيما يرى سهل ، فلقد سئل :

أى شىء أشد على النفس ؟

فقال : الإخلاص .

قيل : ولم ذلك ؟

فقال : « لأنه ليس للنفس فيه نصيب » .

وقد ينتفى الإخلاص عن الفروض نفسها ، بل عن الإيمان ؛ ولقد سئل سهل عن ذلك :

هل يدخل الفرائض رياء ؟

فقال : نعم ، قد دخل الإيمان الذى هو أصل الفرائض حتى أبطله ، وصار نفاقًا ، فكيف العمل ؟ فكل من لم يعب أحد عليه فى ظاهره ، ويعلم الله خلافه من سره فى أى حال كان ، فهو المرائى الذى لا شك فيه » .

ويحذر سهل كل التحذير من الرياء الذى به ينتفى الإخلاص ، وكثيرًا ما تحدث عن الرياء ، ومن ذلك ما يقوله بمناسبة تفسيره لقوله تعالى :

﴿الذين هم يراؤون﴾[1] قال :

هو الشرك الخفى ، لأن المنافقين كانوا يحسنون الصلاة فى المساجد ، فإذا غابوا عن أعين المسلمين تكاسلوا عنها ؛ ألا ترى كيف أثبتهم أولاً مصلين ، ثم أوعدهم بالوعيد ؟

---

(١) الماعون الآية : ٦ .

واعلموا أن الشرك شركان : شرك فى ذات الله عز وجل ، وشرك فى معاملته ، فالشرك فى ذاته غير مغفور ، وأما الشرك فى معاملته قال :

نحو أن يحج ، ويصلى ، ويعلم الناس ، فيثنون عليه ، وهذا هو الشرك الخفى ، وفى الخبر :

« أخلصوا أعمالكم لله ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما خلص ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم إذا وصلتموه ، فإنه للرحم وليس منه شىء لله» .

وقد قال النبى ﷺ لمعاذ حين قال له : أوصنى يا رسول الله ؟

قال : « أخلص لله يكفيك القليل من العمل » ، ولقد تحدث عن حيل الشيطان ليفسد على الإنسان إخلاصه ، وذلك بمناسبة قوله تعالى : ﴿من شر الوسواس الخناس﴾[1] قال سهل :

ما الوسوسة ؟ فقال :

كل شىء دون الله تعالى فهو وسوسة ، وإن القلب إذا كان مع الله تعالى فهو قائل عن الله تعالى ، وإذا كان مع غيره فهو قائل مع غيره ، ثم قال :

من أراد الدنيا لم ينج من الوسوسة ، ومقام الوسوسة من العبد مقام النفس الأمارة بالسوء ، وهو ذكر الطبع ؛ فوسوسة العدوّ فى الصدور كما قال :

---

(١) الناس الآية : ٤ .

﴿يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس﴾[1] .

يعني في صدور الجن والإنس جميعًا ، ووسوسة النفس في القلب ، قال الله تعالى : ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[2] .

وإن معرفة النفس أخفى من معرفة العدوّ ، ومعرفة العدوّ أجلى من معرفة الدنيا ، وأسْرُ العدو معرفته ، فإذا عرفته فقد أسرته ، وإن لم تعرف أنه العدو أسرك ، فإنما مثل العبد ، والعدو ، والدنيا ، كمثل الصياد والطير والحبوب ، فالصياد إبليس ، والطير العبد ، والحبوب الدنيا ، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع ، فإن كنت صائمًا فأردت أن تفطر قال لك :

ما يقول الناس ؟ أنت قد عرفت بالصوم ، تركت الصيام .

فإن قلت : مالي وللناس ؟ قال لك :

صدقت أفطر ، فإنهم سيضعون أمرك على الحسبة والإخلاص في فطرك .

وإن كنت عرفت بالعزلة ، فخرجت .

قال : ما يقول الناس : تركت العزلة .

فإن قلت : مالي وللناس ؟

قال : صدقت ، اخرج فإنهم سيضعون أمرك على الإخلاص والحسبة .

(١) الناس الآيتان : ٥ ، ٦ .
(٢) ق الآية : ١٦ .

وكذلك فى كل شىء من أمرك يردك إلى الناس حتى كأنه ليأمرك بالتواضع للشهرة عند الناس .

ولقد حكى أن رجلاً من العباد كان لا يغضب ، فأتاه الشيطان وقال : إنك إن تغضب وتصبر كان أعظم لأجرك ، ففطن به العابد ، قال : وكيف يجىء الغضب ؟ قال :

آتيك بشىء فأقول لمن هو ، فقل هولى ، فأقول : بل هولى ، فأتاه بشىء .

وقال العابد : هولى .

فقال الشيطان : لا بل هولى .

فقال العابد : إن كان لك فاذهب به ، ولم يغضب .

فرجع الشيطان خائبًا حزينًا ، أراد أن يشغل قلبه حتى يصيب منه حاجته ، فعرفه واتقى غروره .

ثم قال سهل : « عليك بالإخلاص تسلم من الوسوسة » اهـ .

ونتبين من النصين الآتيين مدى تقدير الإخلاص فى رأس سهل .

سئل عن خير العبادات فقال :

« الإخلاص ، لقوله : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[1] .

---

(١) البينة : ٥ .

ويقول : « أفضل الطهارة أن يُطهِّر العبد من حوله وقوته ، وكل فعل أو قول لا يقارنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يتولاه الله عز وجل ، وكل قول لا يقارنه استثناء عوقب عليه ، وإن كان برًّا ، وكل مصيبة لا يقارنها استرجاع لم يثب عليها صاحبها يوم القيامة » اهـ .

وبعد : فإن الحديث الشريف الذى ابتدأ به الإمام البخارى كتابه العظيم : « الصحيح » يقول عنه بعض علمائنا : إنه ربع الإسلام ، وهو :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وإذا كان الإخلاص يبتدئ بالنية فإنه – فى الجو الإسلامى – يصاحب جميع الأعمال .

وإن من أعظم البراهين على صدق الإسلام ، وعلى صدق الرسول ﷺ ، هو هذه الأهمية الكبرى لفضيلة الإخلاص .

الفصل السادس

الطريق فى جوّ المعراج

اتخذ الصوفية الاقتداء برسول الله ﷺ شعارًا لهم ، ولهذا الاقتداء كانوا صفوة أهل السنة ، ويذكر صاحب كتاب « التبصير فى الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف والإشارات » ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمى » من مشايخهم قريبًا من ألف وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ، ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع : القدرية ، والروافض ، والخوارج .

وكيف يتصور فيه من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

وإن الاقتداء برسول الله ﷺ أساس أصيل اليوم لمعراج المؤمنين إلى الله ، بل لا أساس غيره ، وذلك أن الكتاب الوحيد الصادق الآن للتدين إنما هو القرآن الكريم .. إنه :

١ – بالأسلوب الإلهى : هذا الأسلوب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه أسلوب هو تنزيل من لدن حكيم خبير عليم .

٢ – لم ينله تحريف ، فالقرآن الذى يتلوه المسلم الآن هو القرآن نفسه الذى كان يتلوه محمد ﷺ .

٣ – وهو لم ينله تحريف ولا تبديل ، لأن الله سبحانه ضمن حفظه : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1] .

٤ – وليس فى العالم الآن – شرقيه وغربيه – نص مقدس بالأسلوب الإلهى ، وليس فى العالم الآن – شرقيه وغربيه – كتاب دينى إلا وقد ناله التحريف .

٥ – ومن أجل كل ذلك لا يتأتى الآن المعراج إلى الله إلا عن طريق الإسلام ، وعن طريق القدوة. برسول الله ﷺ ، وكل ما يقال الآن عن صوفية فى الشرق أو فى الغرب عن غير طريق الإسلام إنما هو تهريج من التهريج ، وزيف من الزيف ..

* * *

والتصوف – طريقا وغاية – : هو معراج إلى الله .

كيف رسم سهل هذا الطريق فى مقاماته :

إنه يعرف التصوف هذا التعريف الجميل :

---

(١) الحجر الآية : ٩ .

التصوف ليس رسمًا ولا علمًا ، ولكنه خلق ، لأنه لو كان رسمًا لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علمًا لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم ورسم .

والإمام الغزالى يستفيض فى شرح هذه الفكرة من زاويتها العلمية فيقول :

« ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل .

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ؛ فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد »[1] ..

---

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق ، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له : القواريرى ، وكان فقيهًا على مذهب أبى ثور ، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧ .

قال الروذبارى : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل ..

فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال =

والشبلي[1] ، وأبي يزيد البسطامي[2] ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

= عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها .

وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ..

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ (عن الرسالة القشيرية) ..

(١) بغدادي المولد والمنشأ ، وأصله من (أسروشنة) ، صحب الجنيد ومن في عصره ، وكان شيخ وقته حالاً وظرفًا وعلمًا ، مالكي المذهب ، عاش سبعًا وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، وقبره ببغداد .

وكان الشبلي إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول هذا شهر عظمه ربي فأنا أول من يعظمه .

(٢) كان من كبار الزاهدين العابدين ؛ قيل : إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين ..

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصودًا مشهورًا بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه .

ومن كلامه : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود الشرعية (انظر الرسالة القشيرية) .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحًا وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر وأنه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلمت يقينًا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

إن التصوف ليس علمًا نسبيا وليس بحثًا دراسيا ، وتلك حقيقة تبدو واضحة فى هؤلاء الذين يكتبون كثيرًا عن التصوف من المستشرقين ، أو من الباحثين الجامعيين الذين يدرسون التصوف من الخارج على أنه شكل من الأشكال أو رسم من الرسوم .. كلاً ، إن التصوف ليس كذلك ، ولأنه شيء آخر فإن كل من كتبوا عنه على أنه شكل قد أخطأهم التوفيق .. وإن ما كتبه المستشرقون عن التصوف إنما يعطى صورة لضلال الطريق إلى الحقيقة .

أما سهل رضى الله عنه فإنه يقسم طلاب الحق من مبدأ الأمر إلى :

١ – مريدين .

٢ – مرادين .

ويذكر ذلك بمناسبة الآية الكريمة :

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾[١] .

وكان من الممكن أن يذكر ذلك أيضًا بمناسبة الآية الكريمة :

﴿الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾[٢] ..

بل إن هذه الآية الأخيرة أصرح ..

يقول سهل عن الآية الأولى :

إن الله ميز بين المريد والمراد فى هذه الآية وإن كان الجميع من عنده ، وإنما أراد أن يبين موضع الخصوص من العموم ، فخص المراد فى هذه السورة وغيرها ، وذكر المريد وهو موضوع العموم فى هذه السورة أيضًا ، وهو قوله تعالى :

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾[٣] .

فهو قصد العبد فى حركاته وسكونه إليه ، كما قال :

﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾[٤] .

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .
(٢) الشورى : ١٣ .
(٣) الأنعام : ٥٢ .
(٤) الشورى : ٣٨ .

فكل من وجد حال المريد والمراد فهو من فضل الله عليه ، ألا ترى أنه جمع بينهما فى قوله تعالى :

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[1] .

قيل له : فما الفصل بينهما ؟

فقال : المريد الذى يتكلف القصد إليه والعبادة لله تعالى ويطلب الطريق إليه ، فهو فى الطلب بعد ..

والمراد : قيام الله تعالى له بها ، والرجل يجد فى نفسه ما يدل على المريد والمراد يدخل فى الطاعات وقتًا يجد ما يحمله على الأعمال من غير تكلف وجهد ، نظرًا من الله تعالى له ، ثم يخرج بعد ذلك إلى علو المقامات ، ورفيع الدرجات ..

قيل له : ما معنى المقامات ؟

قال : هى موجودة فى كتاب الله تعالى فى قصة الملائكة :

﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[2] وقال :

﴿ولكل درجات مما عملوا﴾[3] ..

وقال فى صفة المريد :

« شغل المريد إقامة الفرض ، والاستغفار من الذنب ، وطلب السلامة من الخلق » .

---

(١) النحل : ٥٣ .
(٢) الصافات : ١٦٤ .
(٣) الأحقاف : ١٩ .

وقال سهل :

« إن الله عز وجل ينظر فى القلوب والقلوب عنده ، فما كان أشدها تواضعا له خصه بما شاء ، ثم بعد ذلك ما كان أسرعها رجوعًا ، وهما هاتان الخصلتان .

وقال : ما اطلع الله على قلب فرأى فيه هم الدنيا إلا مقته ، والمقت أن يتركه ونفسه .

وقال : القلب لا يملكه أحد إلا الله تعالى ، ولا يطيع أحدًا إلا الله ، فإذا ذكرت به فضع سرك مع الله ، فإنه ليس من أحد وضعت سرك عنده إلا هتكه إلا الله عز وجل » .

ومن أوائل ما يبدأ به سهل الحديث عن مقتضيات كلمة التوحيد إذا قيلت بحق : إنه يقول :

فمن قال لا إله إلا الله فقد بايع الله ، فحرام عليه إذا بايعه أن يعصيه فى شيء من أمره ونهيه ، فى سره ، وعلانيته ، أو يوالى عدوه ، أو يعادى وليه .

ولكن الاستجابة لله ولرسوله يقف فى طريقها حجب :

ويتحدث سهل مرة أخرى فى بيان هذه الحجب ، فيقول :

إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة ، فحجب العلماء عنه بالعلم ، والزهاد بالعمل ، والحكماء بلطائف الحكمة ، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور معرفته فلم يحجبهم بشيء .

ويستفيض سهل مرة أخرى فى بيان هذه الحجب فيقول :

الحجب السبعة التى تحجب الإنسان عن ربه عز وجل :

فالحجاب الأول : عقله ، والثانى : علمه ، والثالث : قلبه . والرابع : خشيته ، والخامس : نفسه ، والسادس : إرادته . والسابع : مشيئته .

فالعقل : باشتغاله بتدبير الدنيا ، والعلم : بمباهاته مع الأقران . والقلب : بالغفلة . والخشية : بإغفالها عن موارد الأمور عليها . والنفس : لأنها مأوى كل بلية ، والإرادة : إرادة الدنيا والإعراض عن الآخرة . والمشيئة : بملازمة الذنوب .

ويقول عن فتح القلب :

لا يفتح الله قلب عبد فيه ثلاثة أشياء : حب البقاء ، وحب الغنى ، وهم غد ..

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير من نفسه ؟

قال : إذا لم ير وقتا غير الوقت الذى هو فيه .

ومن الحجب أركان إبليس ، ولإبليس أركان سبعة ، يقول سهل : لإبليس سبعة أركان فى سبع مراتب ، بها ينال ولد آدم إلا من عصمه الله :

أوله : ما لا يعنى ، ثم المعصية جملة ، ثم الإصرار عليها ، ثم الغضب بالسرعة ، ثم الحقد إذا طال مكثه فى القلب ، والاستخفاف . وقلة أقدار الناس عنده ، فإذا بلغ – المرء – هذا فلا تسأل عما وراء ذلك .

فلما سئل سهل عن قوله : لا يعنى ، قال :

من اشتغل بشىء لا يعنيه من أمر آخرته نال منه العدو حاجته ، فكيف غيره ؟

ثم قال : « من تلفظ بلسانه شيئًا مما لا يعنيه لم يوفق للصواب فيما يعنيه » .

وكل من خاض فى الباطل لم يقم بالحق إذا لزمه أو نزل به ، وكذا حكم الله .

إن أهل الباطل لا يوفقون للرشد والحق ، تدخل الأشياء على الفارغ ، فأما المشغول فهو فى مزيد .

ثم قال سهل :

أحسنوا جوار نعم الله عليكم ، فإنها مازالت عن قوم فكادت ترجع إليهم ، ولا يطلع على عثرات الخلق إلا مخل جاهل ، ولا يهتك ستر ما أطلع عليه إلا ملعون .

ومن هذا الوادى ما يقول سهل : ما نظر واحد إلى نفسه فأفلح ، ولا أدعى لنفسه حالاً فتم له ، والسعيد من صرف نفسه عن أفعاله وأقواله ، وفتح له سبيل الفضل والإفضال ، ورؤية منة الله عليه فى جميع الأفعال .

ولكن مهما تعددت الحجب فإنه – كما يقول سهل – ليس بين العبد وربه حجاب أغلظُ من الدعوى ، ولا طريق أقرب إلى الله من الذلة والانكسار .

وسهل يتحدث أكثر من مرة عن الدعوى وعن المدعين ، ويبدو أن سهلاً ضاق به نفسًا فأخذ ينفس عن ضيقه فى هذه الكلمات القوية عن المدعين ، وهو على حق فى كل ما كتبه عن هذه الفئة التى أضرت بالإخلاص وبالخلق فى كل زمن ، ومن ذلك ما يقول :

أدنى الدعوى أن يلزمه اليوم حق من حقوق الله : إما ذنب يتوب منه أو بر ، فيقول : غدًا أعمل ، ولا يكون المدعى خائفًا أبدًا ، ومن لم يكن خائفًا – أى يخاف الله – لا يكون أمنًا ، ومن لم يكن أمنًا لم يطلع على الخزانة ، وما من أحد ادعى إلا وقد ضيع حقوق الله من وجهين :

وجه من الظاهر ، ووجه من الباطن .

وقال : المذنب بإقراره بالذنب يسأل العفو فهو مطيع ، والمدعى للطاعة هو عاص لأنه يحكم لنفسه ما لم يحكم الله عز وجل له .

وهناك شيئان يذهبان خوف الله من قلب العبد أصلاً : الدعوى والمعصية ، وصاحب الدعوى لا يقر بالحق .

وقال : لا أعرف فى الدنيا قومًا أروح أبدانًا من الذين يدعون هذا الطريق – طريق التصوف * هم فى روح وسرور ، لأنهم اسقطوا عن أنفسهم العبودية واستراحوا ، فلا ضربًا يضربون ، ولا محرك يحركهم .

هم أشد من الزنادقة ، لأن الزنديق تضربه وتحركه ، وهم يتكلمون فى وجدان القلوب ويتلذذون به ويكذبون ، ويغتابون ، ويفجرون ولا يبالون ، فضلوا وأضلوا .

وقال : حكم المدعى أنه تصحبه هذه الثلاثة الخصال :

تصحبه التزكية لنفسه وقد نهى عن ذلك ، وجهله بنعم الله عليه ، وجهله بحاله .

وقال : أصل الهلاك الدعوى ، وأصل الخير الافتقار .

ولا مخلص من كل ذلك إلا بالتقوى .

ويعلن سهل فى صراحة أنه :

« لا تصلح التقوى إلا للمقتدى بالنبى ﷺ ، وبالصحابة .

ويقول سهل فى جمال جميل بمناسبة قوله تعالى :

﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾[1] .

يعنى هو أهل أن يتقى فلا يعصى ، وأهل المغفرة لمن يتوب ، والتقوى هى ترك كل شىء مذموم ، فهى فى الأمر ترك التسويف ، وفى النهى ترك الفكرة ، وفى الآداب مكارم الأخلاق ، وفى الترغيب كتمان السر ، وفى الترهيب اتقاء الوقوف عند الجهل ؛ والتقوى هى : التبرى من كل شىء سوى الله ، فمن لزم هذه الآداب فى التقوى فهو أهل المغفرة .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [2] فيقول :

والمتقون هم الذين تبرءوا من دعوى الحول والقوة دون الله تعالى ، ورجعوا إلى اللجوء والافتقار إلى حول الله وقوته فى جميع أحوالهم ،

(١) المدثر : ٥٦ .
(٢) الطلاق : ٢ .

فأعانهم الله تعالى ورزقهم من حيث لا يحتسبون ، وجعل لهم فرجًا ومخرجًا مما ابتلاهم الله به » .

وإذا ما كانت القوى كان العمل :

أما العمل فإن لسهل فيه نظرية عميقة ، إنه يقول :

« ولا تصح التقوى إلا للمقتدى بالنبى ﷺ وبالصحابة » .

ويقول – فيما رواه محمد بن الحسن –

« أعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يجتنب المعاصى إلا صديق » .

وقال سهل : « من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو غافل » .

ويقول : « ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من اجتنب ما نهى عنه الله صار حبيب الله ، ولا يجتنب الآثام إلا صديق مقرب .

وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر » ويقول سهل عن المؤمنين بالنسبة للعمل : « المؤمنون الذين وعدهم الله الجنة على ثلاثة مقامات : واحد آمن وليس له عمل فله الجنة ، وآخر آمن وليس له إثم وعمل صالحًا وهذا فى صفة : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ (١) .

والثالث : آمن ثم أذنب ، ثم تاب وأصلح ، فهو حبيب الله فله الجنة .

---

(١) المؤمنون : ١ .

والرابع : آمن وأحسن وأساء ، يتبين لهم عند الموازنة ، ولله تعالى فيهم مشيئة والعمل الصالح ما كان خاليا من الرياء ، مقيد بالسنة كما يقول سهل ، ولابد أن يكون العمل الصالح مبنيا على الإيمان والعلم والإخلاص .

يقول سهل : « الإيمان بالفرائض وعلمها فرض ، والعمل بها فرض ، والإخلاص فيها فرض ، والإيمان بالسنن فرض بأنها سنة وعلمها سنة والعمل بها سنة ، والإخلاص فيها فرض ، والإخلاص بالإيمان العمل به » .

ويقول سهل بمناسبة قوله تعالى : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾[1] قال : « أى أصوبه وأخلصه ، فإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل حتى يكون صوابًا خالصًا ، والخالص الذى يكون لله تعالى بإرادة القلب ، والصواب الذى يكون على سبيل السنة وموافقة الكتاب » .

ويقول الله تعالى :

﴿أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾[2] .

ويفسر سهل ذلك فيقول :

أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح ، معناه لا يصلح لى إلا ما كان خالصًا لى لا يكون لغيرى فيه أثر وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله تعالى وانقطعوا بالكلية عن جميع ما دونه .

---

(١) هود : ٧ .
(٢) الأنبياء : ١٠٥ .

الذِّكــر

ومن العمل : الذكر . ولقد سبق أن كتبنا فى استفاضة عن الذكر فى كتابنا « العبادة » ، وكتبنا عنه فى استفاضة فى كتاب خاص بعنوان : ﴿فاذكرونى أذكركم﴾ .

وذلك أن من أهم الطرق الموصلة إلى الله : الذكر ؛ وقد حث عليه القرآن الكريم ، وحث عليه الرسول ﷺ ، وهو عماد السبل المؤدية إلى القرب .

ولقد هدد الله سبحانه الغافلين عن ذكره فقال :

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا﴾[1] .

ويقول سهل فى شرح ذلك :

« قد حكم الله أنه لا يعرض عبد عن ذكره وهو أن يرى بقلبه شيئاً سواه ساكناً إياه إلا سلط الله عليه شيطاناً ليضله عن طريق الحق ويغريه » .

ويقول سهل عن الذكر :

« حياة القلب الذى يموت بذكر الحى الذى لا يموت » .

إن الذين أعطاهم الله تعالى فهم القرآن هم خاصة الله وأولياؤه لا هم للدنيا ولا الدنيا منهم فى شىء ، ولا فيما فى الجنة رغبوا أخذ منهم

---

(١) الزخرف آية : ٣٦ .

الدنيا فلم يبالوا ووهبها لهم فردوها كما ردها نبيهم ﷺ ، لما عرضت عليه ، طرحوا أنفسهم بين يديه رضا وسكونًا إليه ، وقالوا :

لابد لنا منك أنت أنت لا نريد سواك ، فهم المتفردون بالله ، كما قال النبى ﷺ سيروا سير المتفردين إلى رحمة الله .

قالوا : ومن المتفردون يا رسول الله ؟

قال : الذين اهتدوا بالذكر لله تعالى ، يأتون يوم القيامة خفافًا قد حط الذكر عنهم أثقالهم قال سهل :

هم المشايخ المستَهتَرون[1] فى الذكر لله تعالى مجالسون كما قال النبى ﷺ يقول الله تعالى :

« أنا جليس من ذكرنى ، حيث ما التمسنى وجدنى .

وقال تعالى : ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[2] .

ويرى سهل أن الآية القرآنية الكريمة :

﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾[3] .

تشير – مع معناها – إلى القلب ، إنه يقول :

الإشارة فى البيوت إلى القلب فمنها ما هو عامر بالذكر ، ومنها ما هو خرب بالغفلة ، ومن ألهمه الله عز وجل بالذكر فقد خلصه من الظلم » .

---

(١) المستهترون : بفتح التاءين هم المكثرون من الذكر .
(٢) البقرة : ١١٥ .
(٣) النمل : ٥٢ .

والذاكر على الحقيقة هو - فيما يرى سهل - « من يعلم أن الله مشاهده فيراه بقلبه قريبًا منه فيستحى منه ، ثم يؤثره على نفسه وعلى كل شيء من جميع أحواله » .

ويقول : « من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر فقد ضيع حاله » .

ولكن الخاتمة الجميلة التى نختم بها موضوع الذكر عند سهل هى قوله :

« من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر ، فقد ضيع حاله » .

الحمـد

ومن الذكر : الحمد :

والحمد لله هو مفتتح سورة الفاتحة : نردده معها كل يوم أكثر من مرة فى سجودنا ، وهو من جملة الباقيات الصالحات التى أعلن عنها رسول الله ﷺ وهى : « سبحان الله ، والحمد لله ،ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ،

عن أنس رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ ، جالسًا فى الحلقة ، إذ جاء رجل فسلم على رسول الله ﷺ والقوم فقال : السلام عليكم ورحمة الله ؛ فرد رسول الله ﷺ :

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته :

فلما جلس الرجل قال :

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، كما يحب ربنا أن يحمد وينبغى له .

فقال له رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال ، فقال النبى ﷺ :

« والذى نفسى بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك ، كلهم حريص

على أن يكتبها ، فما دَرَوا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذى العزة ، فقال : اكتبوها كما قال عبدى »[1] .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما – فيما رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه – أن رسول الله ﷺ :

« حدثهم أن عبدًا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فعضَّلتْ بالملكين[2] فلم يدريا كيف يكتبانها ؟ فصعدا إلى السماء ! فقالا :

يارينا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟

قال الله وهو أعلم بما قال عبده ، ماذا قال عبدى ؟

قالا : يارب إنه قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها » .

ويقول سهل فى الحمد :

« ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها ، والنعمة التى ألهم بها الحمد أفضل من النعمة الأولى ، لأن بالشكر يستوجب المزيد » .

---

(١) رواه أحمد ورواته ثقات ، والنسائى ، وابن حيان فى صحيحه إلا أنهما قالا : « كما يحب ربنا ويرضى » .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الذكر والدعاء » ومعنى عضلت : صعب عليهم تقدير ثوابها .

الشكر

ويتصل بالحمد : الشكر

ويقول الله تعالى :

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[1] ويقول سهل : « أدنى الشكر أن لا تعصيه بنعمه ، ومرة أخرى يقول بهذا المعنى : أول درجات الشكر : الطاعة .

وحينما فسر سهل قوله تعالى : ﴿قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على﴾[2] .

قال : أى ألهمنى التوبة والعمل بالطاعة ، ونقول فى النهاية مع سهل :

« ليس للعبد أن يتكلم إلا بأمر سيده وأن يبطش إلا بأمره وأن يمشى إلا بأمره ، وأن يأكل وينام ويتفكر إلا بأمره ، وذلك أفضل الشكر الذى هو شكر العباد لسيدهم » .

ويسلم الذكر والحمد والشكر إلى التوكل .

ويزعم بعض الناس أن العمل الكسب ينافى التوكل ، فما حكم الدين ؟

---

(١) إبراهيم : ٧ .
(٢) النمل : ١٩ .

لقد رأى سيدنا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بعض الناس ، ولاحظ أنه لا يبدو عليهم أنهم من أهل العمل والكسب ، فسألهم : من أنتم ؟

فقالوا : متوكلون .

فقال : كذبتم ، ما أنتم متوكلون ، إنما المتوكل : من ألقى حبة فى الأرض وتوكل على الله ، إن الجو الإسلامى كله ، ينادى بالعمل والكفاح ، فى سبيل الرزق والقوت ، ويبين أن العمل والكفاح لا يتنافى والتوكل ، بين ذلك من الناحية النظرية ، ومن الناحية التطبيقية .

أما الناحية النظرية ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه﴾[1] .

ولقد استفاض ، رسول الله ، ﷺ فى بيان وجوه الكسب ، ومما ورد فى ذلك ما رواه أبو داود ، عن أنس رضى الله عنه ، أن رجلا من الأنصار أتى النبى ﷺ فسأله ، فقال النبى له :

« أما فى بيتك شىء » ؟

قال : بلى حلس – وهو نوع من الكساء – نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب – وهو قدح للشراب – نشرب فيه الماء .

فقال رسول الله ، ﷺ :

« ائتنى بهما » .

---

(١) الملك : ١٥ .

فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ، ﷺ ، بيده وقال :

« من يشترى من هذين » ؟

قال رجل : أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله ، ﷺ :

« من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا .

قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، فأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصارى وقال : « اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدومًا فأتنى به » .

فأتاه به ، فشد رسول الله ، ﷺ عودًا بيده ، ثم قال : « اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشرة يوما » .

ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبًا ، وببعضها طعامًا ؛ فقال له رسول الله ، ﷺ :

هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة » .

هذا من الناحية النظرية .

وماذا عن العمل من الناحية التطبيقية ؟

روى البخارى رضى الله عنه : « أن المهاجرين حينما قدموا المدينة آخى رسول الله ، ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ،

فأراد سعد وكان من أكثر الانصار مالاً ، أن يشاطر عبد الرحمن ماله .

فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ،

ثم سأل عن السوق فدلوه عليه ، فذهب وباع واشترى ، ثم عاد ومعه بعض السلع وتابع الأمر من الغد .

وبعد قليل جرى المال فى يده فتزوج واستقل فى بيت وأصبح فيما بعد من أكثر المسلمين أموالاً ومن أكثر المسلمين صدقة » .

وهذا أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح ذاهبًا إلى السوق ليتاجر كعادته ، فلحق به الصحابة وتكاثروا عليه ليمنعوه قائلين : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال رضى الله عنه : لا تشغلونى عن عيالى فإنى إذا ضيعتهم كنت لغيرهم أضيع ففرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين .

ويستحيل أن يقال : إن الصديق ، أو عبد الرحمن بن عوف لم يكونا متوكلين ، فمن أولى إذن بالتوكل منهما ؟ .

والمثل الأعلى للكفاح الدائب الدائم إنما يتمثل فى رسول الله ، ﷺ ، وهذا الكفاح الدائب الدائم كان يصاحبه التوكل ويسبقه فى كل مشروع ويستمر بعد المشروع لأنه سبحانه :

﴿إليه المصير﴾[1] .

ولأن الوضع عند المؤمن هو ما عبر الله عنه :

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾[2] .

---

(١) غافر : ٣ .

(٢) هود : ١٢٣ .

والمؤمن مؤمن بقوله تعالى :

﴿ولله عاقبة الأمور﴾[1] .

وقد سبق أن كتبنا عن التوكل عند سهل ، وهذه نصوص له فى التوكل :

إنه يقول : « التوكل » الاسترسال مع الله على ما يريد » .

ويقول : « ما التوكل » ؟

التوكل طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والتبرى من الحول والقوة .

ويقول : « من طعن فى التوكل ، فقد طعن فى الإيمان » .

قال تعالى : ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ [2] .

وهذه المقامات لا يستقيم أمرها ، ولا يقر لها قرار إلا إذا تحلى الإنسان بفضيلة :

---

(١) الحج : ٤١ .

(٢) المائدة : ٢٣ .

الصبر

وقد تحدث سهل عن الصبر أكثر من مرة فى استفاضة أحيانًا ، وفى إيجاز أحيانًا أخرى .

ومن أجمع أحاديثه عن ذلك ما يلى .

قيل : ما الصبر ؟

قال : لا عمل أفضل من الصبر ، ولا ثواب أكثر من ثواب الصبر ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا تقوى إلا بالصبر ، ولا معين على الصبر لله إلا الله عز وجل .

قيل : الصبر من الأعمال ؟

قال : نعم الصبر من العمل بمنزلة الرأس من الجسد ، لا يصلح أحدهما إلا بصاحبه .

قيل : ما أجل الصبر ؟

قال : أجله انتظار الفرج من الحق .

قيل : فما أصل الصبر ؟

قال : مجاهدة النفس على إقامة الطاعات ، وأدائها بأحكامها وحدودها ومكابدتها على اجتناب المعاصى صغيرها وكبيرها .

قيل : والناس فى الصبر كيف هم ؟

قال : الناس فى الصبر صنفان ، فصنف يصبرون للدنيا حتى ينالوا

منها ما تشتهى أنفسهم فهو الصبر المذموم ، وصنف يصبرون للآخرة طلبًا لثواب الآخرة وخوفًا من عذابها .

قيل : فالصبر للآخرة هو على نوع واحد أو على أنواع .

قال : الصبر للآخرة له أربعة مقامات . فثلاث منها فرض ، والرابع فضيلة : صبر على طاعة الله عز وجل ، وصبر عن معصيته ، وصبر على المصائب من عنده ، أو قال : صبر على أمر الله عز وجل ، وصبر على نهيه ، وصبر على أفعال الله عز وجل ، فهذه ثلاثة مقامات منه وهى فرض ، والمقام الرابع فضيلة ، وهو الصبر على أفعال المخلوقين ، قال الله تعالى :

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[1] .

أذن بالمثل وفضل الصبر ؛ ثم قال : ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾[2] ولا يعين عليه إلا هو » والقمة النفيسة فى الصبر أن يصاحبه : الرضى وحينما يشرح سهل قوله تعالى : ﴿فصبر جميل﴾[3] يقول : الصبر مع الرضا . قيل : وما علامته ؟ قال : أن لا يجزع فيه . فسئل : بأى شيء يحصل التجمل بالصبر ؟

قال : بالمعرفة بأن الله تعالى معك ، وبراحة العافية ، فإنما الصبر مثل قدح أعلاه الصبر وأسفله العسل ، ثم قال :

---

(١) النحل : ١٢٦ .
(٢) النحل : ١٢٧ .
(٣) يوسف : ١٨ .

عجبت ممن لم يصبر ، كيف لم يصبر للحال ورب العزة يقول : ﴿إن الله مع الصابرين﴾[1] .

* * *

إن ما سبق هو بعض منازل السائرين إلى الله التى تسلم إلى الولاية ، وقبل أن نتحدث عن الولاية نروى عن سهل ما يلى ، زيادة فى إيضاح الفكرة عن منازل السائرين للحق سبحانه :

« بادروا بالتوبة من السيئات حتى تأمنوا العقوبة ، وتصيروا أحباب الله ، فإن الله يحب التوابين » .

ويقول : « إن الأمراض والأسقام ، والأحزان والمصائب : إنما هى كفارات للصغائر ، وأما الكبائر فلا يسقطها إلا التوبة ، ومثله كمثل حبر يصيب الثوب فلا يقلعه إلا الصابون الحاد ، والمعالجات بالخل والأشنان وغيره .

ومثل الصغائر كمثل قليل دبس[2] يصيب الثوب بيذهبه الريق ، وقليل من الماء فقيل : يا أبا محمد أليس قد روى أن المصائب كفارات وأجر ؟ فضحك ، وقال : إن المصائب إذا ضم إليها الصبر والاحتساب تكون كفارة وأجرًا كلاهما ؛ فأما إذا لم يصبر عليها ولم يحتسبها تكون كفارات وحطًا لا أجر فيها ولا ثواب :

وبيان ذلك أن المصائب فعل غيرك ولا تثاب على فعل غيرك ، وصبرك واحتسابك فعل لك فتؤجر وتثاب .

(١) البقرة : ١٥٣ .
(٢) ما يسيل من الرطب .

وقيل : أى العمل يعمل حتى يعرف عيوب نفسه ؟ قال :

لا يعرف عيوب نفسه حتى يحاسب نفسه فى أحواله كلها .

قيل : فأى منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟

قال : إذا ترك التدبير .

قيل : فأى منزلة إذا قام بها أقام الصدق ؟

قال : « إذا توكل عليه فيما أمره به ونهاه عنه » .

ويقول رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى :

﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله﴾[1] يقول :

« العبادة زينة العارفين ، وأحسن ما يكون العارف إذا كان فى ميادين العبودية والخدمة يترك ماله لما عليه » .

ويقول : « لا يكمل للعبد شىء حتى يصل علمه بالخشية ، ولعله بالورع ، وورعه بالإخلاص ، وإخلاصه بالمشاهدة ، والمشاهدة بالتبرى مما سواه » .

وكان يقول : يلزم الصوفى ثلاثة أشياء :

« حفظ سره ، وصيانة فقره ، وأداء فرضه » .

---

(١) النحل : ٣٦ .

الولاية

يقول الله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ [1] .

قد حدد الله سبحانه الولى بأنه المؤمن المتقى .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم كشأنه دائمًا فى اتخاذ القرآن والسنة ، إمامًا له فيقول : « الولى من توالت أعماله على الموافقة » وقال : « من أسلم قلبه لله تولى الله جوارحه » .

ويتحدث سهل عن الأولياء ودرجاتهم بمناسبة تفسيره للآية القرآنية الكريمة : التى صدرنا بها هذا الموضوع فيقول : هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ :

« إذا رُؤُوا ذكر الله ، وهم المجاهدون فى الله ، السابقون إليه ، الذين توالت أفعالهم على الموافقة ، أولئك هم المؤمنون حقا .

وقال : اجتمع الخير كله فى هذه الأربعة وبها صاروا أبدالاً : أخماص البطون ، والاعتزال عن الخلق ، وسهر الليل ، والصمت .

قيل له : لم سمى الأبدال أبدالاً ؟

---

(١) يونس : ٦٢ - ٦٤ .

فقال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الحيل فى سرهم ، ثم لا يزالون ينتقلون من حال إلى حال ، ومن علم إلى علم ، فهم أبدًا فى المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال ينقلبون من حال إلى حال .

وما دام الإيمان يزيد وينقص فهناك إذن درجات فى الولاية ، وسم هذه الدرجات بأى اسم شئت ، فإنه كما يقول الأصوليون :

لا مشاحة فى الاصطلاح .

والأمر فى هذا التقسيم ، وفى التسمية لا يثير جدلاً إلا عند من ديدنهم الجدل ، فإنه ما دام هناك زيادة ونقص فهناك درجات ، وما دام هناك درجات ، فإنه يمكن وضع أسماء لهذه الدرجات والله سبحانه قسم أولياءه إلى درجات كثيرة يقول سبحانه :

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا﴾[1] .

---

(١) النساء : ٦٩ – ٧٠ .

ومن أولياء الله المتقون ، والأوابون ، والصابرون والمحسنون والمقربون ، والسابقون والسابقون ، وهكذا .

وإذا استولى الله وليًّا علمه .

ومن طرائف ما يروى فى ذلك حادثة الإمام الشعرانى مع الإمام الخواص :

لقد كان الإمام الشعرانى رضى الله عنه يمر بالإمام الخواص — وهو أُمى — يجد الناس تلتف حوله وتسأله ؛ وكان الإمام الشعرانى — قبل اتخاذ الإمام الخواص شيخا له — يضيق بذلك ذرعًا فيقول فى مواجهة الخواص ، وعلى مسمع من الناس :

« ما اتخذ الله من ولى جاهل » .

وتكرر ذلك والإمام الخواص لا يلتفت إليه .

وفى يوم من الأيام التفت إليه فى هدوء وقال له : « يتخذه ويعلمه » .

وبدأ الإمام الشعرانى العالم يتقرب شيئًا فشيئًا إلى الإمام الخواص الأمى ، وانتهى الأمر بأن اتخذه شيخًا وكتب عنه هذا الكتاب النفيس المسمى :

« درة الغواص فى أجوبة الخواص » .

ومن هذا القبيل يقول الإمام سهل :

« إن الله تعالى ما استولى وليًّا من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن ، إما ظاهرًا وإما باطنًا ؛ قيل له :

إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو ؟

قال : فهمه ، وإن فهمه هو المراد .

قال أبو بكر السجزى : سمع منى هذه الحكاية الجنيد فقال : صدق سهل كان عندنا ببغداد عبد أسود أعجمى اللسان نسأله عن القرآن آية آية فيجيبنا عن ذلك بأحسن جواب وهو لا يحفظ القرآن وتلك دلالة ولايته » .

ومع ذلك فإن سهل – وهو الإمام المتزن – يحذر الأولياء فيقول :

« لو أن واحدًا دخل بستانًا فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح : السلام عليك يا ولىالله ، فلو لم يخف أنه مكر لكان ممكورًا .

وأعلى درجات الولاية هى درجة الصديقية .

ولقد سئل سهل عن هذه الدرجة فأخذ يتحدث عنها وعن أخلاق الذين ارتقوا بتوفيق الله إليها ، وعن أخلاق الأولياء على وجه العموم .

لقد سئل : من الصديقون ؟

قال : « الذين عدوا أنفاسهم بالتسبيح والتقديس ، وحفظوا الجوارح والحواس فصار قولهم وفعلهم صدقًا ، وصار ظاهرهم وباطنهم صدقًا ، وصار دخولهم فى الأشياء وخروجهم عنها بالصدق ، ومرجعهم إلى مقعد صدق بقدم صدق عند مليك مقتدر » .

ومن أخلاقهم – كما يروى عنه أبو محمد الحريرى – يقول :

« من أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله ، لا صادقين ولا كاذبين ، ولا يغتابون ولا يغتاب عندهم ، ولا يشبعون بطونهم ، وإذا وعدوا

لم يخلفوا ، ولا يتكلمون إلا والاستثناء فى كلامهم ، ولا يمزحون أصلاً .

وبمناسبة تفسير سهل لقوله تعالى : ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [1] .

يقول : « إن الله تعالى وصف بذلك من جبله بجبلة متعالقًا بسبب من سببه غير منفك عن مراقبته ، وهم الذين لم يختاروا قط اختيارًا ، ولا أرادوا شيئًا دونه ، ولا اختيارًا دون اختياره لهم ، كما اختاره لهم ، ولا أرادوا شيئًا يصرفهم عنه ، ومن غيره هم مبرءون » .

ويصاحب الولاية فى جميع مراحلها :

(١) الأنفال : ٣ .

وقد تحدث الله سبحانه أنه : ﴿يحب التوابين﴾[1] و ﴿يحب المتطهرين﴾[2] و ﴿يحب المحسنين﴾[3] .

وهكذا .

ومفهوم سهل فى المحبة مفهوم دقيق ، إنه يقول : « المحبة أن تحب ما يحبه حبيبك ، وتكره ما يكره » ويرى سهل أن الحب لله يلازمه الخوف ، والمحب لا يفارقه الخوف ، ومن هنا يروى عن سيدنا أبى بكر أنه قال :

« لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة » .

ويقول سهل : « النيران أربعة ، نار الشهوة ، ونار الشقاوة ، ونار القطيعة ، ونار المحبة .

فنار الشهوة تحرق الطاعات ، ونار الشقاوة تحرق التوحيد ، ونار القطيعة تحرق القلوب ، ونار المحبة تحرق النيران كلها .

ولقد حكى أن على بن الحسين رضى الله عنه دخل مغارة مع أصحب له فرأى امرأة فى المغارة وحدها .

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .
(٢) البقرة : ٢٢٢ .
(٣) المائدة : ٩٣ .

فقال لها : من أنت ؟

قالت : أمة من إماء الله إليك عنى لا يذهب الحب .

فقال لها على رضى الله عنه : وما الحب ؟

قالت : أخفى من أن يُرى ، وأبين من أن يخفى كمونه فى الحشاء ككمون النار فى الحجر ، إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى ، ثم أنشأت تقول :

« إن المحبين فى شــغل لســيدهم
كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا »

ولقد قيل لسهل : أى شىء يفعل الله بعبده إذا أحبه ؟

قال : يلهمه الاستغفار عند التقصير ، والشكر له عند النعمة ،

ويقول : قال الله لآدم : يا آدم إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا غير فضلى ، وخاف غير عدلى لم يعرفنى ، يا آدم إن لى صفوة وضنائن ، وخيرة من عبادى ، أسكنتهم صلبك ؛ بعينى من بين خلقى ، أعزهم بعزى ، وأقربهم من وصلى ، وأمنحهم كرامتى ، وأبيح لهم فضلى ، وأجعل قلوبهم خزائن كتبى ، وأسترهم برحمتى ، وأجعلهم أمانًا بين ظهرانى عبادى ؛ فبهم أمطر السماء ، وبهم أنبت الأرض ، وبهم أصرف البلاء ، وهم أوليائى وأحبائى .

درجاتهم عالية ، ومقاماتهم رفيعة ، وهممهم بى متعلقة ، صحت عزائمهم ، ودامت فى ملكوت غيرى فكرتهم فارتهنت قلوبهم

بذكرى ، فسقيتهم بكأس الأنس صرف محبتى ، فطال شوقهم إلى لقائى ، وإنى إليهم لأشد شوقا ؛

يا آدم من طلبنى من خلقى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فطوبى يا آدم لهم ثم طوبى لهم ثم طوبى لهم وحسن مآب .

يا آدم هم الذين إذا نظرت إليهم هان على غفران ذنوب المذنبين لكرامتهم على » اهـ .

وبعد : فإنا نختم هذا بهذه الكلمة الجميلة لسهل :

« طوبى لمن تعرف بالأولياء ؛ فإنه ربما استدرك ما فاته من الطاعة ، وإن لم يستدرك شفعوا فيه ؛ لأنهم أهل فتوة » .

الفصل السابع

الطريق من زاوية الولاية والكرامات

سبق أن تحدثنا فى بعض كتبنا عن الكرامات ، وأنها مذكورة ، فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية الشريفة .

والواقع أن الخلاف الذى يثار فى هذا الموضوع عادة إنما هو فى إثبات كرامة معينة لشخص معين ، وهذا الخلاف أمره هين ، ومن أنكر كرامة معينة وقعت بالنسبة لشخص معين ، فليس معنى ذلك أنه أنكر الكرامات جملة ، وإثبات الكرامات محل اتفاق بين أهل السنة .

ويتحدث سهل عن الكرامات وعن الأولياء فى كثير من النصوص المتناثرة هنا وهناك ، وحديثه عنها يتسم بالجد وبالعمق ، وهو يتحدث عن تجربة ومشاهدة ، ويتحدث عن منطق وعقل .

وتأمل أولاً ما يقول سهل : « أظهر الله تعالى آياته لأوليائه ، وجعل السعيد من عباده من صدقهم على كراماتهم ، وأعمى أعين الأشقياء عن ذلك ، وصرف قلوبهم عنه ، ومن أنكر آيات الأولياء ، فإنما ينكر قدرة الله تعالى ، فإن القدرة تظهر على الأولياء الآيات ، لاهم بأنفسهم يقدرون على إظهارها ، كما قال :

﴿ويريكم آياته ، فأى آيات الله تنكرون﴾[1] .

---

(١) غافر : ٨١ .

ويتحدث سهل – عن مخالطة ومشاهدة – عن بعض الكرامات فيقول :

« مخالطة الولى بالناس ذلّ ، وتفرده عزّ ، وما رأيت أولياء الله تعالى إلا منفردين ؛ إن عبد الله بن عبد الله بن صالح رحمهم الله ، كان رجلاً له سابقة جليلة ، وموهبة جزيلة ، وكان يفرّ من بلد إلى بلد ، حتى يأتى مكة ، فطال بها مقامه فقلت له :

لقد طال مقامك بها ؟ فقال : ولم لا أقيم بها ، ولم أر بقعة ينزل فيها من الرحمة والبركة مثلها ؟ يطوف الملائكة حول البيت غدوة وعشية ، على صور شتى ، لا يقطعون ذلك ، وإن فيها عجائب كثيرة ، ولو قلت كلما رأيت : لصغت عنه قلوب أقوام ليسوا بمؤمنين .

فقلت : أسألك بحق الحق ، أن تخبرنى بشىء من ذلك ؟

فقال : ما من ولّى لله تعالى صحت ولايته إلا وهو يحضر فى هذه البلد فى كل ليلة جمعة ؛ ولقد رأيت رجلاً يقال له مالك بن القاسم الجيلى رحمه الله تعالى ، ليلة هاهنا ، ورأيت على يده غمرًا فقلت :

إنك لقريب العهد بالأكل ؟ فقال :

أستغفر الله فإنى منذ أسبوع لم أطعم شيئًا ، ولكنى أطعمت والدتى وأسرعت لأدرك صلاة الفجر هاهنا جماعة ، وبين مكة وبين الموضع الذى جاء منه سبعمائة فرسخ ، فهل أنت مؤمن بذلك ؟ فقلت : بلى .

فقال : الحمد لله الذى أرانى مؤمنًا .

وقال ابن سالم : كنت عند سهل رحمه الله تعالى ، فأتاه رجلان بعد صلاة العصر وجعلا يحدثان ، فقلت فى نفسى : لقد أبطئا عنده ،

وما أراهما يرجعان فى هذا الوقت ، وذهبت إلى منزلى لأهيئ لهما عشاء ، فلما رجعت إليه لم أر عنده أحدًا فسألت عن حالهما فقال :

« إن أحدهما يصلى المغرب بالمشرق والآخر بالمغرب ، وإنما أتيانى زائرين » ا .هـ .

ولقد سئل سهل مرة عن كيفية إدراك منزلة الكرامات فقال :

« من زهد فى الدنيا أربعين يومًا صادقًا مخلصًا فقد ظهرت الكرامات من الله عز وجل له ، ومن لم تظهر له فهو لما فَقَدَ من زهده من الصدق والإخلاص » ا .هـ .

ولكن من هم الأولياء ؟ يتحدث سهل عن ذلك بمناسبة قوله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾[1] قال سهل :

« هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ ، إذا رئوا ذكر الله ، وهم المجاهدون فى الله ، السابقون إليه ، الذين توالت أفعالهم على الموافقة ، أولئك هم المؤمنون حقًا .

وقال : اجتمع الخير كله فى هذه الأربعة ، وبها صارو أبدالاً :

أخماص البطون ، والاعتزال عن الخلق ، وسهر الليل ، والصمت .

قيل له : لم سمى الأبدال أبدالاً ؟

فقال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الحيل فى سرهم ، ثم لا يزالون ينتقلون من حال إلى حال ؛ ومن علم إلى علم ، فهم أبدًا فى المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

---

(١) يونس : ٦٢ .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال ينقلبون من حال إلى حال » .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ [1] .

« إن الله تعالى خلق القلوب وأقفل عليها بأقفال ، وجعل مفاتيحها حقائق الإيمان فلم يفتح بتلك المفاتيح على التحقيق إلا قلوب المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، وأنبياءه ، والصديقين وأولياءه .

وسائر الناس يخرجون من الدنيا ولم يفتح أقفال قلوبهم .

والزهاد والعباد والعلماء خرجوا منها وقلوبهم مقفلة ، لأنهم طلبوا مفاتيحها فى العقل فضلوا الطريق ، ولو طلبوه من جهة التوفيق والفضل لأدركوه ، والمفتاح أن تعلم أن الله قائم عليك ، رقيب على جوارحك ، وتعلم أن العمل لا يكمل إلا بالإخلاص مع المراقبة » .

ولقد تحدث سهل عن الأنبياء والأولياء معًا فى مواضع من تفسيره فقال :

« وما من أحد فى الدنيا إلا غلبه إبليس لعنه الله فأسره ، إلا الأنبياء صلوات الله عليهم . والصديقون الذين شاهدت قلوبهم إيمانهم فى مقاماتهم ، وعرضوا اطلاع الله عليهم فى جميع أحوالهم ، فعلى قدر

---

(١) محمد : ٢٤ .

مشاهدتهم يعرفون الابتلاء ، وعلى قدر معرفتهم الابتلاء يطلبون العصمة ، وعلى قدر فقرهم وفاقتهم إليه يعرفون الضر والنفع ، ويزدادون علمًا وفهمًا ونظرًا .

ثم قال : ما حمل الله على أحد من الأنبياء ما حمل على نبينا محمد - ﷺ - من الخدمة ، وما من مقام خدمة الله تعالى بها من ولد آدم عليه السلام إلى أن بعث نبينا - ﷺ - إلا وقد خدم الله بها نبينا - ﷺ .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿السابقون السابقون﴾ [1] .

« هم الذين سبق لهم من الله الاختيار والولاية قبل كونهم ، المقربون فى منازل القرب وروح الأنس ، وهم الذين سبقوا فى الدنيا :

فسبق الأنبياء إلى الإيمان بالله ، وسبق الصديقون والشهداء من الصحابة وغيرهم إلى الإيمان بالأنبياء » .

وقال سهل : « انتهت همم العارفين إلى الحجب فوقفت مطرقة ، فأذن لها بالدخول فدخلت فسلمت ، فخلع عليها خلع التأييد ، وكتب لها من الرقع براءات .

وإن همم الأنبياء صلوات الله عليهم جالت حول العرش فألبست الأنوار ، ورفع منها الأقدار ، واتصلت بالجبار ، فأفنى حظوظها ، وأسقط مرادها ، وجعلها متصرفة به له .

وقال : آخر درجات الصديقين أول الأحوال للأنبياء صلوات الله عليهم ، وإن نبينا - ﷺ - عبد الله تعالى بجميع أحوال الأنبياء .

---

(١) الواقعة : ١٠ .

وبمناسبة قوله تعالى : ﴿وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾[1] قال :

يعنى ارزقنى قربة أوليائك لأكون من جملتهم ، وإن لم أصل إلى مقامهم » .

أما مهمة الأولياء فإن سهلا يتناسق فى تحديدها مع مهمة الرسل ، وهى الاقتداء برسل الله فى نشر الدعوة النبوية ، والجهاد فى سبيلها ، إنه يقول :

« إن الله تعالى أخذ على أوليائه التذكرة لعباده ، كما أخذ التبليغ على أنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين .

فعلى أولياء الله أن يدلوا عليه ، فمتى قعدوا عن ذلك كانوا مقصرين » .

ومع ذلك فأرجو أن يتدبر القارئ الكريم قول سهل ، وقد سئل عن الكرامات فقال : « وما الكرامات ؟ إن الكرامات شىء ينقضى لوقته ، ولكن الكرامات أن تبدل خلقا مذمومًا من أخلاقك بخلق محمود » .

وقال له تلميذه عبد الرحمن بن أحمد :

يا سيدى : ربما أتوضأ فالماء الذى يسيل من أعضائى يصير قضبانًا من الذهب والفضة ؟

فقال له : « أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطوا خشخاشة يشتغلون بها ؟ » .

---

(١) النمل : ١٩ .

ونختم هذه النصوص بقوله عن الرسول – ﷺ – وقد سئل عن معنى قوله – ﷺ – « إنى لست كأحدكم ، إن ربى يطعمنى ويسقينى » فقال :

« ما كان معه طعام ولا شراب ، ولكنه كان يذكر خصوصيته عند الله تعالى ، فيكون كمن أكل الطعام وشرب الشراب » .

وما من شك فى أن رأى سهل فيما سبق رأى موفق ، إنه يتلخص فى :

١ – لا شك فى أن الكرامات ثابتة بقدرة الله تعالى وواقعة لبعض الناس .

٢ – والكرامات فى نفسها على الخصوص تشجيع للمبتدئين فى العروج إلى الله .

٣ – وأفضل الكرامات هى التخلى عن الأخلاق المذمومة ، والتحلى بالأخلاق الحميدة .

الفصل الثامن

متناثرات عن الطريق فى الحِكَم والمواعظ والنصائح والتوجيهات

لسهل بن عبد الله مجموعة ضخمة فيما يتصل بإرشاد الناس فى صورة موعظة أو حكمة أو توجيه أو نصيحة ، نذكر منها ما تيسر دون ترتيب معين ..

قال سهل : أيما عبد قام بشىء مما أمره الله به من أمر دينه فعمل به وتمسك به ، فاجتنب ما نهى الله تعالى عنه عند فساد الأمور ، وعند تشويش الزمان ، واختلاف الناس فى الرأى والتفريق إلا جعله الله إمامًا يقتدى به ، هاديًا مهديًّا قد أقام الدين فى زمانه وأقام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو الغريب فى زمانه ، الذى قال رسول الله – ﷺ فيه : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ » .

وما من عبد دخل فى شىء من السنة وكانت نيته متقدمة فى دخوله لله إلا خرج الجهل من سره شاء أو أبى بتقديمه النية ، ولا يعرف الجهل إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم ، سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا الحسن النحاس جارنا ، يقول سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : الفترة غفلة ، والخشية يقظة ، والقسوة موت .

وقال : الغضب أشد على البدن من المرض ، لأنه إذا غضب دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل عليه من المرض ، ولهذا قال المصطفى – ﷺ – : « لا تغضب » وكرره

وقال : ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب .

وقال : الجاهل ميت ، والناسى نائم ، والعاصى سكران ، والمصر هالك .

وقال : ما عبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى .

وقال : مخالطة الفقير للناس ذل ، وبعده عنهم عز .

وقال :

الفتن ثلاثة : فتنة العامة من إضاعة العلم ، وفتنة الخاصة من الرخص ، والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق فى وقت فيؤخروه .

وقال : الابتلاء كالمرض يمرض الواحد مائة سنة فلا يموت ، ويمرض آخر ساعة فيموت .

وقال عثمان بن محمد العثمانى ، سمعت أبا بكر محمد بن يحيى بن أبى بدر يقول ، سمعت أبا محمد سهل بن عبد الله ، يقول : الانقطاع من الشهوات : الخروج من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

وقال : شيئان يذهبان خوف الله من قلب العبد : أصل الدعوى والمعصية ، وصاحب المعصية إذا خوفته واحتججت عليه بالإيمان ينقاد ويخضع ويقر بالخوف ، وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ولا ينقاد

للخوف البتة ، ولا يوجد قلب أخلى من الخير ولا أقصى ولا أبعد من خوف الله من قلب المدعى .

وقيل له : ما أغرب الأشياء ؟

قال : قلب عرف الله ثم عصاه .

وقال : اجتنب صحبة ثلاثة أصناف : الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

وقال : إن الله قال لآدم : أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا غير فضلى ، وخاف غير عدلى ، لَم يعرفنى .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول :

من كمل إيمانه ، لم يخف من شىء سوى الله تعالى .

وسمعته يقول : لزوم الباب طلب العبد إلى مولاه أن يثيبه على الإيمان ويقبضه عليه .

قال : وسمعت سهل بن عبد الله ، يقول : من تخلى من الربوبية وأفرد الله بها ، واعترف بالعبودية وعبد الله بها ، استحق من الله الملك الأعظم فى حياة الأبد ، ومن نازع الله ربوبيته قصمه الله ، ألا ترى أنهم يحبون الغنى ، والله هو الغنى وهم الفقراء ، ويحبون الأمر والنهى ، والله تعالى يقول : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[1] ، ويحبون البقاء ، والله تعالى يقول ، ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك﴾[2] ، ويحبون

(١) الأعراف : ٥٤ .
(٢) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

الدنيا والله يبغضها ، ويريدونها والله لا يريدها ، فهم ينازعون الله الربوبية ويعادونه فيما أحب .

قال : أزهد الناس أصفاهم مطعمًا ، وأعبد الناس أشدهم اجتهادًا فى القيام بالأمر والنهى ، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه .

والطهارة على سبعة أوجه : طهارة العلم من الجهل ، وطهارة الذكر من النسيان ، وطهارة الطاعة من المعصية ، وطهارة اليقين من الشك ، وطهارة العقل من الحمق ، وطهارة الظن من النميمة ، وطهارة الإيمان مما دونه .

وقال : فساد الدين بثلاث : الملوك إذا أخذوا فى السرف والشهوات ، والعلماء إذا افتوا بالرخص ، والقراء إذا تعبدوا بغير علم ، وإن العلماء يحتاج إليهم الخلق فى الدنيا والآخرة .

وقال : قوام الدين والدنيا فى ثلاث : العلم والأدب والمبادرة ، وهلاك الدين والدنيا فى ثلاث : الجهل والخرق والكسل .

وقال : أربع من دعائم الدين : القيام بالحق على نفسك وغيرها والقعود عن باطل نفسك وغيرها ، والمودة لأهل طاعة الله ، والبغض لأهل معصيته .

وفى قوله تعالى : ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودًا وعلى جنوبهم﴾[1] قال : من أراد حفظ القرآن فليختم بثلاث ختمات على شرط :

(١) آل عمران : ١٩١ .

ختمة قائمًا يصلى ، وختمة قاعدًا يدرس ، وختمة مضطجعًا على جنبه ، فإنه لا ينسى إن شاء الله عز وجل .

ومن اشتغل بطلب العلم بالتقوى ، وقراءة القرآن ، وذكر الله عز وجل ، واتباع السنة ، واجتناب اللهو ، لم تصبه الأمراض والأسقام .

ومن أطاع الله بالعلم وصدق النية لم يفقد عقله وقال :

ليس للعبد حيلة سوى أن يواظب فى جميع عمره على قول : رب سلّم سلّم ، الأمان الأمان ، الغوث الغوث .

وإياك والتدبير فإنه داء النفس ، وعليك بالاقتداء فإنه أساس العمل ، وإياك والعجب فإن أدنى باب منه لم تستتمه حتى تدخل النار ، وعليك بالقنوع والرضى ، فإن العيش فيهما ، وإياك والائتمار على غيرك فإنه لينسيك نفسك ، وعليك بالصمت فأنت تعرف الأحوال فيه ، وعليك بترك الشهوات تنقطع به عن الدنيا ، وعليك بسهر الليل تموت نفسك من ميلة طبعك يحى قلبك ، وإذا صليت فاجعلها وداعًا ، وخف الله يؤمنك ، وارجه يؤملك ، واتكل عليه يكفك ، وعليك بالخلوة تنقطع الآفات عنك .

ولقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : لولا مخافة الوسواس لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ .

وقال : ما من عبد أراد الله بعزم صحيح إلا زال عنه كل شىء دونه ، وما من عبد زال عنه كل شىء دونه إلا حق عليه أن يقوم بأمره ، وليس فى الدنيا مطيع لله وهو يطيع نفسه ، ولا يتباعد أحد عن الله إلا بالاشتغال بغير الله ، وإنما تدخل الأشياء على الفارغ ،

وأما من كان مشغول القلب بالله لم تصل إليه الوسوسة وهو فى المزيد أبدًا واحفظ نفسك بالأصل ، قيل له : ما هو ؟ قال : التسليم لأمر الله ، والتبرى ممن سواه .

وفى قوله تعالى ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾[1] قال : إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه ، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح ، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب ، فلما خلص السر له ورجع عن عادة الطبع فداه بذبح عظيم .

وفى قوله سبحانه : ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ [2] قال يعنى بلاء رحمة ألا ترون كيف بعثه على الرضا » .

وعن قوله تعالى ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله﴾[3] قال : أى ممن دل على الله وعلى عبادته وسنة رسوله ﷺ ، واجتناب المناهى ، وإدامة الاستقامة مع الله ، والاستقامة به خوفًا من الخاتمة ، وفى الطريقة الوسطى والجادة المستقيمة التى من سلكها سلم ، ومن تعداها ندم .

من استغنى بغير الله فبغناه افتقر ، ومن اغتر بغيره فبعزه ذل ، ألا ترى أن الله يقول : ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا﴾ [4] .

---

(١) الصافات : ١٠٧ .
(٢) الصافات : ١٠٦ .
(٣) فصلت : ٣٣ .
(٤) الجاثية : ١٩ .

وفى قوله تعالى ﴿والله الغنى وأنتم الفقراء﴾[1] قال : معرفة السر كله فى الفقر وهو سر الله ، وعلم الفقر إلى الله تعالى تصحيح علم الغنى بالله عز وجل والله سبحانه وتعالى أعلم .

وعن قوله تعالى ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾[2] قال : هى كلمة لا إله إلا الله فإنها رأس التقوى ، ثم قال خير الناس المسلمون ، وخير المسلمين المؤمنون ، وخير المؤمنين العلماء العاملون ، وخير العاملين الخائفون ، وخير الخائفين المخلصون المتقون الذين وصلوا إخلاصهم وتقواهم بالموت ، فإن مثله كمثل راكب السفينة بالبحر لا يدرى ينجو منه أم يغرق فيه ، والذين تم لهم ذلك أصحاب رسول الله ﷺ بقوله : ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ .

وفى قول الله سبحانه : ﴿ففرُّوا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين﴾[3] .

قال : يعنى ففروا مما سوى الله إلى الله ، وفروا من المعصية إلى الطاعة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن عذابه إلى رحمته ، ومن سخطه إلى رضوانه ، وقد قال النبى – ﷺ – « أعوذ بك منك فهذا أيضا باب منه عظيم » .

وقال سهل : تربة المعاصى الأمل ، وبذرها : الحرص ، وماؤها الجهل ، وصاحبها الإصرار ، وتربة الطاعة المعرفة ، وبذرها اليقين ، وماؤها العلم ، وصاحبها السعيد المفوض أموره إلى الله تعالى .

---

(١) محمد : ٣٨ .
(٢) الفتح : ٢٦ .
(٣) الذاريات : ٥٠ .

وقال : لا يطلع على عثرات الخلق إلا جاهل ، ولا يهتك ستر ما اطلع عليه إلا ملعون .

وقال :

من علم أن الله قريب منه فقد بعد عن كل ما سواه .

وقال :

دع التدبير والاختيار لله الواحد القهار ، فإن تدبير الخلق لأنفسهم هو المكدر لعيشهم .

وقال : من اشتغل بما لا يعنيه نال العدو منه حاجته فى يقظته ومنامه .

وقال سهل : الأمل أرض كل معصية ، والحرص بذر كل معصية ، والتسويف ماء كل معصية ، والندم أرض كل طاعة ، واليقين بذر كل طاعة ، والعمل ماء كل طاعة ، وبقدر ما تهدم من دنياك تبنى لآخرتك ، وبقدر ما تخالف نفسك وهواك وشهوتك ترضى مولاك وبقدر ما تعرف عدوك وعداوته - يعنى إبليس - تعرف ربك .

وقال : وسمعت سهلاً يقول : إذا جنك الليل فلا تأمل النهار حتى تسلم ليلتك لك ، وتؤدى حق الله فيها ، وتنصح فيها لنفسك ، فإذا أصبحت فكذلك .

وقال : الفرح كله فى تدبير الله لعباده .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول : مخالطة الولى للناس ذل ، وتفرده عنهم عز ، وقلما رأيت وليا لله عز وجل إلا منفردًا .

وكان ، يقول : من أحب أن يطلع الناس على ما بينه وبين الله فهو غافل .

وكان يقول : قد أيس العلماء فى زماننا هذا من هذه الثلاث خصال : ملازمة التوبة ، ومتابعة السنة ، وترك أذى الخلق .

وكان يقول : العيش على أربعة أقسام : عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى العلم ، وانتظار الوحى ، وعيش الصديقين فى الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالمًا أو جاهلاً زاهدًا كان أو عابدًا فى الأكل والشرب والضرورة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقوام للصديقين ، والقوت للمؤمنين ، والمعلوم للبهائم .

وكان يقول : من سلم من الظن سلم من التجسس ، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة ، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور ، ومن سلم من الزور سلم من البهتان .

وكان رضى الله عنه ، يقول : الله قبلة النية ، والنية قبلة القلب ، والقلب قبلة البدن ، والبدن قبلة الجوارح ، والجوارح قبلة الدنيا .

وكان يقول : لا يستحق الإنسان الرياسة حتى يصرف جهله عن الناس ويحمل جهلهم ، ويترك ما فى أيديهم ويبذل ما فى يده لهم .

وقال : لا يستحق الرجل الرياسة على الخلق إلا إن احتمل أذاهم وبذل لهم ما بيده وزهد فيما بيدهم .

وقال : دخلت الفتنة على العامة من الرخص والتأويلات ، وعلى العارفين من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر .

ومن كلامه رضى الله عنه : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا انتبهوا ندموا ، وإذا ندموا لم تنفعهم الندامة .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول : ما طلعت شمس ولا غربت على أهل الأرض إلا وهم جهال بالله ، إلا من يؤثر الله على نفسه وزوجته ودنياه وآخرته ، وأدنى الأدب أن يقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن يقف عند الشبهة .

وكان يقول : إن الله مطلع على القلوب فى ساعات الليل والنهار ، فأيما قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه إبليس .

وقال سهل : لا تستصغر شيئًا من الذنوب وإن قلّ فإنهم قالوا : أربعة بعد الذنب أشد من الذنب ، الإصرار ، والاستبشار ، والاستصغار ، والافتخار .

وقد قال ابن مسعود – رضى الله عنهما – : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الكافر يرى ذنوبه كذبابة وقعت على أنفه فقال هكذا بيده فطارت .

قوله تعالى : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾[1] قال : لما نزلت هذه الآية خطب رسول الله – ﷺ – فقال فى خطبته !

« ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل صادق يقضى فيها ملك قادر ، ألا وان الخير كله بحذافيره فى الجنة ألا وان الشر كله بحذافيره فى النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم معرضون على أعمالكم ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[2] .

---

(١) الزلزلة : ٧ .
(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إتمام التقوى أن يتقى الله عبدُه حتى يتقيه فى مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا : يكون حجابًا بينه وبين الحرام .

سمعت أبا الحسن بن جهضم يقول : حدثنى طاهر بن الحسن ، قال : سمعت إبراهيم البرجى يقول : سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : ما أظهر عبد فقره إلى الله فى وقت الدعاء فى شىء يحل به إلا قال الله لملائكته : لولا أنه لا يحتمل كلامى لأجبته : لبيك .

وقال : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى .

وقال : إذا قام عبد بما يجب لله عليه قام الله بما يجب عليه من الحقوق .

سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن المنذر الهجيمى ، يقول ، قال سهل بن عبد الله : الخلق كلهم بالله يأكلون ، وفى عبادته غيره يشركون .

وقال سهل : من دق الصراط عليه فى الدنيا عرض عليه فى الآخرة ، ومن عرض عليه الصراط فى الدنيا دق له فى الآخرة .

سمعت أبا الحسن يقول : سمعت محمد بن المنذر يقول سمعت سهل ابن عبد الله يقول وسأله رجل ، فقال : يا أبا محمد إلى من تأمرنى أن أجلس ؟ فقال له : إلى من تكلمك جوارحه لا من يكلمك لسانه .

وقال : الخشية سر ، والخشوع علانية ، من خشعت جوارحه لم يقربه الشيطان ، قيل فما الخشوع ؟ قال : الوقوف بين يدى الله ، والصبر على ذلك .

قال : وكمال الخشوع ، ترك الآثام فى السر والعلانية .

يقول : كفى الله العباد دنياهم ، فقال عز من قائل :

﴿أليس الله بكاف عبده﴾[1] واستعبدهم بالآخرة ، فقال :

﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾[2] .

وفى قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا﴾[3] قال سهل :

أى أضدادا ، فأكبر الأضداد النفس الأمارة بالسوء ، المنطلقة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله» .

وقال : البلوى قسمان :

بلوى رحمة ، وبلوى عقوبة .

فبلوى الرحمة ، تبعث صاحبها على إظهار مقره وفاقته إليه تعالى ، وترك تدبير نفسه واختياره .

وبلوى العقوبة ، تبعثه على اختيار نفسه وتدبيرها » .

وسئل عن الاسم الأعظم ، فقال :

---

(١) الزمر : ٣٦ .
(٢) البقرة : ١٩٧ .
(٣) البقرة : ٢٢ .

أرونى الأصغر أريكم الأعظم ، أسماء الله كلها عظيمة ، أصدق وخذ أى اسم شئت يفعل معك » .

وسئل كيف يتخلص العبد من خدعة نفسه وعدوه ؟ قال :

« يعرف فيما بينه وبين الله ، وبعد عرفان حاله فيما بينه وبين الله يعرض نفسه على الكتاب والأثر ، ويقتدى فى الأشياء بالسنة » .

وقال : « الغضب أشد فى البدن من المرض : إذا غضب دخل عليه من الإثم أكثر مما يدخل عليه فى المرض » .

وقال : « الله معنا قريب إلينا ، فلابد لنا من أن نكون معه ، نؤثره ونطيعه ، فيكون إيثارنا له صدقنا بعلمنا فيه » .

ويقول : « إن الله يطلع على أهل قرية أو بلد ، فيريد أن يقسم لهم من نفسه قسمًا ، فلا يجد فى قلوب العلماء ولا فى قلوب الزهاد موضعًا لتلك القسمة من نفسه ، فيمن عليهم : أن يشغلهم بالتعبد عن نفسه » .

يقول الله تعالى : ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾[1] فسئل ما الدنيا ؟ فقال :

الدنيا كلها جهل إلا موضع العلم ، والعلم كله حجة إلا موضع العمل به ، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ، والإخلاص لا يتم إلا بالسنة ، ثم قال : دنياك نفسك ، فإذا أفنيتها فلا دنيا لك .

وقال : « السرور بالله هو السرور ، والسرور بغيره هو الغرور » .

---

(١) النساء : ٧٧ .

وكان يقول : « إذا خلا العبد من الدنيا وهرب من نفسه إلى الله وسقط من قلبه أثر الخلائق لم يعجبه شيء ، ولم يسكن إلى شيء غير الله قط ، فالله مؤنسه ومؤدبه وكالئه وحافظه وجليسه وأنيسه : إياه يناجى ، وله يناجى ، وله ينادى ، وبه يستأنس ، وإليه يرغب ، وإليه يستريح .

قال الله جل ذكره :

طوبى لمن خلقته فعرفنى ، ودعوته فأجابنى ، وأمرته فأطاعنى ، ورزقته فحمدنى ، وأعطيته فشكرنى ، وابتليته فصبر لى ، وعافيته فذكرنى ومدحنى » .

وقال : خلق الله الإنسان على أربع طبائع : طبع البهائم ، وطبع الشياطين ، وطبع السحرة ، وطبع الأبالسة ، فمن طبع البهائم : البطن والفرج قال تعالى : ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾[1] .

وطبع الشياطين : اللهو واللعب والزينة والتكاثر والتفاخر ، قوله تعالى :

﴿لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد﴾[2] . ومن طبع السحرة المكر والخديعة :

﴿ويمكرون ويمكر الله﴾[3] .

---

(١) الحجر : ٣ .
(٢) الحديد : ٢٠ .
(٣) الأنفال : ٣٠ .

﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[1] .

ومن طبع الأبالسة الإباء والاستكبار ، قوله تعالى :

﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾[2] .

واستعبد الله العباد بالتسبيح والتقديس والتحميد والشكر ، حتى يسلموا من طبع الشياطين اللهو واللعب يقول فى كتابه :

﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾[3] .

وقوله : ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾[4] .

ومن طبع السحرة استعبدهم الله بالاقتداء بالنبى – ﷺ – بالنصيحة ، والرحمة ، والصدق ، والإنصاف ، والتفضل ، والاستعانة بالله والصبر على ذلك إلى الممات .

ومن طبع الأبالسة استعبدهم الله بالدعاء والصراخ والتضرع والالتجاء :

﴿قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾[5] .

يسلم به العباد إذ يعتصمون به .

---

(١) النساء : ١٤٢ .
(٢) البقرة : ٣٢ .
(٣) الأعراف : ٢٠٦ .
(٤) الأنبياء : ٢٠ .
(٥) الفرقان : ٧٧ .

وقوله : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾[1] .

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾[2] .

حتى يسلموا من طبع الأبالسة .

وكان يقول : أصل الدنيا الجهل ، وفرعها الأكل والشرب ، واللباس ، والطيب والنساء ، والمال والتفاخر والتكاثر ، وثمرتها المعاصى وعقوبة المعاصى الإصرار ، وثمرة الإصرار الغفلة ، وثمرة الغفلة الاستجراء على الله .

وقال : « النية اسم الأسامى ، والطاعات أسامى ، والنية الإخلاص ، وكما يثبت حكم الظاهر بالفعل كذلك يثبت حكم السر بالنية ، ومن لا يعرف نيته لا يعرف دينه ، ومن ضيع نيته فهو حيران ، ولا يبلغ العبد حقيقة علم النية حتى يدخله الله فى ديوان أهل الصدق ويكون عالما بعلم الكتاب وعلم الأثار وعلم الاقتداء » .

وينصح سهل من يحيطون به فيقول لهم : حققوا الخير بالفعل .

قيل له : وكيف لنا أن نحققه بالفعل ؟

قال : بخمسة أشياء ، لابد لكم منها :

أكل الحلال ، ولبس الحلال ، وحفظ الجوارح ، وأداء الحقوق كما أمرتم به ، وكف الأذى عن المسلمين ، كيلا يذهب بأعمالكم قصاصًا فى القيامة ، ثم استعينوا على ذلك كله بالله حتى يتمها لكم .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .
(٢) آل عمران : ١٠٢ .

قيل له : فكيف تصح للعبد هذه الأحوال ؟ قال :

لابد له من عشرة أشياء ، يدع منها خمسا ويتمسك بخمس :

يدع وساوس العدو ، ويتبع العقل فيما يزجره ، ويدع اهتمامه لأمر الدنيا ويتركها لأهلها ، ويهتم بالآخرة ، ويعين أهلها ، ويدع اتباعه الهوى ، ويتقى الله على كل حال ، ويترك المعصية ، ويشتغل بالطاعة ، ويدع الجهل والإقامة عليه حتى يحكم عمله ، ويطلب العلم ويعمل به .

ويقول سهل : لا يكون العبد مقيمًا على معصية إلا وجميع حسناته ممزوجة بالهوى لا تخلص له حسناته ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتخلص من هواه حتى يخرج من جميع ما يعرف من نفسه مما يكرهه الله .

وقال : أول ما ينبغى للعبد أن يتخلق به ثلاثة أخلاق وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المئونة ، والرفق فى كل شىء ، والحذر أن يميل فى الهوى ، أو مع الهوى أو إلى الهوى .

ثم لابد له من ثلاث أحوال أخر ، وفيها اكتساب العلم العالى :

الحلم ، والتواضع ، والإنصاف .

ثم لابد له من ثلاثة أخر ، وفيها اكتساب المعرفة وأخلاق أهلها :

السكينة ، والوقار ، والصيانة .

وقال : من أخلاق الإسلام والإيمان : الحياء ، وكف الأذى ، وبذل المعروف ، والنصيحة ، وفيها أحكام التعبد .

وقال : أركان الدين أربعة : الصدق ، واليقين ، والرضا ، والحب .

فعلامة الصدق : الصبر ، وعلامة اليقين : النصيحة ، وعلامة الرضا ترك الخلاف ، وعلامة الحب الإيثار ، والصبر يشهد للصدق .

وقال : الجاهل ميت ، والناسى نائم ، والعاصى سكران ، والمصر ندمان .

وقال سهل : لا تفتش عن مساوئ الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن فتش وابحث فى أخلاق الإسلام ما حالك فيه حتى تسلم ويعظم قدره فى نفسك وعندك .

وكان يقول : إذا قام العبد بما لله تعالى عليه ، فحقيق على الله أن يقوم بما كان العبد قائمًا به لنفسه وقال :

لا تفتش عن مساوئ الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولكن فتش عن أخلاق الإسلام وما حالك فيه حتى يعظم قدره فى نفسك ، وتجتهد فى التلبس بتلك الأخلاق .

وقال : « اعلم أن لله تعالى أمانة فى سمعك وبصرك ولسانك وفرجك ، وظاهرك ، وباطنك ، عرضها عليك ، فإن لم تحفظها خنت ، والله لا يحب الخائنين » .

وقال : العاصون يعيشون فى رحمة العلم ، والمطيعون يعيشون فى رحمة القرب .

وقال فى تفسير قوله تعالى :

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾[1] قال « العمل الصالح ما كان خاليا عن الرياء مقيدًا بالسنة » .

---

(١) الكهف : ١١٠ .

خاتمة

لقد أراد سهل أن يعود بفكرة العلم والعلماء إلى الجو الإيمانى الصادق ، وحديثه عن العلم والعلماء يستأهل التسجيل .

إن خيار الناس ، فيما يرى ، العلماء الخائفون ، وخيار الخائفين المخلصون الذين وصلوا إخلاصهم بالموت ، رضى الله تعالى عنهم .

والعلم فى الدين ليس أهواء ، ولا ابتداعًا ، ولا اختراعًا ، ولكنه اتباع ، ويقول سهل بمناسبة قوله تعالى :

﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[1] قال :

العلم الكتاب والاقتداء ، لا الخواطر المذمومة ، وكل علم لا يطلبه العبد من موضع الاقتداء صار وبالاً عليه ، لأنه يدعى به .

ومنح الله ومواهبه كثيرة ، ولكن :

ما أعطى أحد شيئًا أفضل من علم يستزيد به افتقارًا إلى الله .

ويتحدث سهل عن الإخلاص فى العلم وعن شكره فيقول :

الدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا العمل به ، والعمل كله هباء منثور ، إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه أنت منه على وجل حتى تعلم هل قبل أم لا .

---

(١) الزمر : ٩ .

أما شكر العلم العمل ، وشكر العمل زيادة العلم ، فهو أبدًا فى هذا وهذه حاله .

ويربط سهل برباط وثيق بين العلم والعمل فيقول بمناسبة قوله تعالى :

﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾[1] :

كل عالم أعطى علم الشر وليس هو مجانبًا للشر فليس بعالم ، ومن أعطى علم الطاعات وهو غير عامل بها فليس بعالم .

وكما للخمر سكر فإن للعلم سكرًا ؛ وقد دخل على سهل أبو حمزة الصوفى فقال :

أين كنت يا أبا حمزة ؟ قال :

كنا عند فلان ، وأخبرنا أن السكر أربعة .

فقال : أعرضها على .

فقال سكر الشراب ، وسكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر السلطنة ؛ فقال : وسكرتان لم يخبرك بهما ، فقال : ما هما ؟

فقال : « سكر العالم إذا أحب الدنيا ، وسكر العابد إذا أحب أن يشار إليه » .

والعالم الربانى لا يخوض فى دنيا الناس ؛ يقول سهل :

« وكل عالم خاض فى الدنيا فلا تصغ لكلامه بل يتهم فيما يقول ، لأن كل إنسان يدفع ما لا يوافق محبوبه .

---

(١) هود : ٨٨ .

وهذا الاتجاه بالعلم إلى جو العظة والعبرة والإخلاص والتجريد هو الاتجاه الصادق .

وسهل رضى الله عنه ما كان عالمًا فحسب ، وإنما كان مصلحًا للعلم .

أما من ناحية علمه فإنه يمثل الطابع العام لعلوم الصوفية :

إن العلم فى المجال الصوفى يدور حول القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف يدرسهما فى عمق ، وذلك ليأخذ منهما الأساس الصادق للقدوة والتأسى .

إن الصوفى يرى فى رسول الله ﷺ الأسوة ، ويدرس كل ما يتصل بحياته وبدعوته من كتب الأحاديث ، ومن كتب السيرة حتى يمكنه أن يستجيب للقرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[1] .

أما القرآن الكريم فإنه نور الأنوار من اتصل به عن قرب مستجيبًا إلى هديه أشرق نوره فى قلبه وفى بصيرته ، وهُدى إلى الصراط المستقيم .

وسهل رضى الله عنه لا يمل من ترداد ما يحث على الاقتداء ، وعلى اتخاذ القرآن والسنة أساسًا للسلوك وللأخلاق وللتشريع وللعقيدة وللسير إلى الله عن بصيرة .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

وإذا أخذ الناس الذين فى قلوبهم زيغ يبحثون فى متشابه القرآن مما يتصل بالذات أو بالقدر والجبر والاختيار ، فإن سهلاً يوجه التيار فى رفق وحكمة إلى الهداية الحقة .

والهداية الحقة هى أن تسير إلى الله من باب الذلة والانكسار ، من باب الخشوع والخضوع ، ... من باب القدوة والاتباع .

ومن دراستنا لسهل نرى أنه :

درس واجتهد فى التفسير وفى السيرة وانتهى إلى هذه النفائس فى التفسير وفى التوجيه على النسق النبوى .

وإذا كان العلم لا يطلب لذاته ، وإنما هو وسيلة تنتهى إلى العقيدة الصادقة والخلق الكريم والسلوك المستقيم والعمل والإخلاص فى كل ما يأتى الإنسان وما يدع ، فإن سهلاً انتهى من علمه إلى الثمار الصادقة للعلم ، وكان مثلاً كريمًا للخلق الكريم .

والعلم والعمل هما القدر المشترك بين الصوفية جميعهم تقريبًا .

وهذان العنصران ظاهران فى حياة سهل رضى الله عنه .

على أن الرسالة الكبرى للصوفية إنما هى الهداية إلى الله تعالى : هداية الحيارى ، وهداية الشاكين ، وهداية العصاة ؛ إنهم يدعون إلى الله على بصيرة ويدعون إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلون بالتى هى أحسن ، إنهم يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله .

وهذه الرسالة هى رسالة رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ ، وقام بها الخلفاء الراشدون من بعده والصحابة رضوان الله عليهم ، ولم تكن هناك إذ

ذاك تفرقة بين عالم الدين ، ورجل الدنيا ، فقد جمع الصحابة رضى الله عنهم بين علماء الدين ورجال الأعمال فى وحدة واحدة منسجمة سخرت فيها جميع الأعمال لأن تكون فى سبيل الله ، وكما كان رسول الله ﷺ قدوة كان الصحابة رضى الله عنهم قدوة .

وحينما أصبحت الخلافة ملكًا عضودًا تخصص قوم فى علوم الدين فكان : العلماء .

ولقد أخلص العلماء وجههم لله ، لا يبغون من وراء ذلك مالاً ولا جاهًا ولا ملذات فانية : إنهم لم يشركوا بالله أحدًا فى وجههم ، وكان المثل الكريم لهؤلاء إنما هم الأئمة الفقهاء والأئمة المحدثون من أمثال : مالك والشافعى وابن حنبل وأبى حنيفة وسفيان الثورى وعشرات آخرين .

كان هؤلاء يقومون على سلامة المجتمع فى سلوكه وفى عقيدته وفى عبادته وكانوا يقومون بواجب النصح للرعية والراعى ، وكان الرعاة يتقبلون النصح أحيانًا ويضيقون به أخرى ، ولكن العلماء سواء أضاق الرعاة بهم أم استجابوا وكانوا يمضون فى طريق الهداية لا يصرفهم عن ذلك صارف .

ولكن الحكام وقد تخلصوا هم من عبء الدعوة والهداية ، حيث قام بها العلماء أخذوا يستولون على هؤلاء العلماء تدريجيًا عن طريق الوظائف والجاه ، وتدرج هذا شيئًا فشيئًا فقد بدأ ضعاف النفوس يسيرون تحت راية الحكام ليصيبوا من حطام الدنيا ، وأخذت الدائرة تتسع شيئًا فشيئًا حتى أصبحت شاملة أو شبه شاملة .

وهنا ظهر فى المجتمع طائفة الصوفية يقومون بما كان يقوم به الدعاة منذ بدء الإسلام .

إنهم أصبحوا خلفاء الرسول ﷺ فى الدعوة ، وهؤلاء الخلفاء كانت نشأتهم ، وكان ميلادهم مع نشأة الإسلام وميلاده إلا أنه لم يكن هناك كلمة – بالنسبة للدعاة – أشرف من كلمة الصحابة ، ثم كانت كلمة التابعين هى العلم الشريف لكل من تلاقى مع الصحابة : صحابة رسول الله ﷺ .

لقد ولد التصوف مع الإسلام ؛ والقرآن والسنة وسيرة الرسول ﷺ كلها أعلام هداية فى طريق السالكين إلى الله سبحانه ، إنها أعلام هداية من حيث الأساس الذى يقوم عليه الطريق ، وأعلام هداية من حيث المعراج فى السلوك ، وإذا تأملت فى طريق الصوفية أو فى غابات الطريق فستجد أنه يقوم على الإسلام ويسير على هداه .

وقام الصوفية بدورهم خير قيام : لقد اهتدى بهم الكثيرون وأسلم على أيديهم أقطار بأكملها ، والإسلام فى أندونيسيا ، وفى هذه الأقطار البعيدة عن مركز الدعوة الإسلامية الأولى إنما هو من آثار الصوفية .

إن الإسلام لم ينتشر بسيف ، وإنما انتشر بالدعوة بالحسنى ، وبالاقتناع ، وبالقدوة .

ولقد كان الصوفية بسمتهم الوقور ، وبالنور يشرق فى وجوههم ، وبالثقة التى فرضت نفسها فيهم يمثلون الخلافة لرسول الله ﷺ خير تمثيل ، واهتدى بهم من أحب الله له الهداية وانصرف عنهم من لم يكتب الله له السعادة .

وهذه الرسالة لا مناص من أن تؤسس على العلم ، ومن هنا كان الصوفية معنيين بالعلم قرآنًا وسنة وسيرة فكان فيهم المفسرون وكان فيهم المحدثون ، وكانوا علماء هداة مرشدين .

وسهل خير مثال لهذا الجانب العلمى ، ولكنه مثال من مئات أو من ألوف كلهم على نسقه يسير فى تيار الهداية مؤسسًا ذلك على العلم .

ولابد فى الحياة من أناس تتوافر فيهم الثقة حتى يطمئن الناس إلى أن المثل الكريمة مازالت موجودة ، وأن الخير مازال باقيًا ، وإلا شقى الناس بعدم الثقة بعضهم فى بعض ، وإذا كانت النفس الأمارة بالسوء تهدم بمعاول من الشر الثقة فى النفوس فإن النفوس التى اطمأنت إلى الله ورضى الله عنها ، وأحبت الله ، وأحبها الله تعيد بناء الثقة ، وتعمل على نشر المثل الكريمة بسلوكها وسمتها ودعوتها .

وهذه المثل الكريمة ضرورة للمجتمع ، والتصوف إذن ليس ترفًا وإنما هو ضرورة لا يستقيم مجتمع خير بدونها ، لأنه لا يستقيم مجتمع بدون الإيمان بأن الخير لم يزل موجودًا .

ومحاربة التصوف إنما هى محاربة للمجتمع ومحاربة لبث الثقة فى المجتمع .

ورضى الله عن الأعلام الهداة منذ ابتداء الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ورضى الله عنهم فى جنة الخلد مأواهم ومستقرهم ، ورضى الله عنهم حينما يتحقق واقعيًا ما يقوله الرحمن الرحيم الودود :

﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾[1] .

وصلى الله وسلم وبارك على مشرق الهداية خير خلق الله وصفوته من عباده الذى قال له الحكيم العليم :

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغَداة والعَشيِّ يريدون وجهه ، ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾[2] .

والذى قال له : ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين﴾ [3] .

---

(١) القيامة : ٢٣ .
(٢) الكهف : ٢٨ .
(٣) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

الفهرست

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٧٧٢٧	
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4663 - 8	ISBN

١ / ٩٣ / ٦١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)